البحوث الاستشراقيَّة والنقديَّة

المستشرقُ جون برتون والمُبشِّر جون جلكرايست والجدل بشأنِ عمليَّة جمع القرآنِ الكريمِ تحليل أُطروحتهما ونَقدها

(القسم الأوَّل)

أ.د. عبد الجبَّار ناجي الياسريّ

دار الرسول الأعظم/العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة

The Orientalist John Burton and the Missionary John Gilchrist and the Controversy over the Process of Codification of the Holy Qur'an Analysis and Criticism of their theses

(First Section)

Prof. Dr. Abdel-Jabbar Naji Al-Yasiri

Dar Al-Resol Al-Aadhem/Holy Abbas Shrine

ملخَّص البحث

إنَّ ما عبَّر عنه المستشرقُ (هربرت بيرغ) من أنَّ الجدالَ سوف يبقى مستمرًّا بين المستشرقين، وإلى درجةٍ قليلةٍ جدًّا؛ بلْ نادرة بين العربِ، والمسلمين بخصوصِ هذه المسألة؛ أي جمع القرآن الكريم، والزَّمن الذي أُقرَّ به، أو اعتُرِفَ بِه رسميًّا؛ فالإشكاليَّة ظهرتْ في أوربا، لاسيَّما في ألمانيا منذُ مطلع القرن التَّاسع عشر، وربَّما أقدم من ذلك، ومنذُ أنْ ناقشَ الموضوع (إبراهام جيجر) الألمانيّ (ت ١٨٧٤م) في رسالته الجامعيَّة التي كتبَها في سنة ١٨٣٢م، وأعقبه بعد مدَّةٍ وجيزةٍ المستشرق (ثيودور نولدكه) الألمانيّ (ت١٩٣٠م)، والذي وقفَ على الموضوع نفسه في رسالته الجامعيَّة التي نشرها في كتابه باللاتينيَّة في سنة ١٨٥٦ أوَّلًا ثم باللغة الألمانيَّة في سنة ١٨٦٠م؛ وكذلك عند محقِّقِ، أو مجدِّد كتاب نولدكه (فردريك شاولي Schwally) الذي خلص إلى آراءٍ مختلفةٍ كثيرًا عن آراء نولدكه، ثمَّ أعقب ذلك تحقيقًا آخر قام بِهِ المستشرق برجستراسر Bergstrasser، وبرتزل Pretzl وجميع هؤلاءِ المستشرقينَ منَ العُلماء الألمان، واستمرَّ العُلماءُ في معالجة هذا المحور نفسه منذئذ إلى وقتِنا الحاليّ الذي كتب فيه المستشرق الألمانيّ البريطانيّ (هربرت بيرغ) في سنة ٢٠١٧م، وأنَّ جميع هؤلاءِ المستشرقين قد مثَّلوا منذُ بداية معالجتهم إشكاليَّة جمع القرآن الكريم ثمَّة اتِّجاهات يمكنُنا توزيعُها على ثلاثة اتِّجاهات:

الأوَّل: إنَّ القرآن الكريم قد أفْتى الخليفةَ الرَّاشديّ الأوَّل، والصَّحابيّ عمر بن الخطَّاب، وزيد بن ثابت على جمعه، ثمَّ الخليفة عثمان بن عفَّان، ومجموعة من شبابِ

قُريش على جمعه، وتوزيعه على الأمصار الإسلاميَّة آنذاك، أقصد في زمن الخليفة الثالث، وبذلك أقرَّ رسميًّا.

أمَّا الاتِّجاه الثاني: فيتمثَّل برفض الفكرة على كونِه قد جُمع في عهد أولئك الخلفاء، وإنَّه وبحسب رأيهم قد جُمع في نهاية القرن الثاني للهجرة، وربَّما بداية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، وأنَّ جمعه كان بتأثير من علماء الفقه؛ محاولة منهم لحلِّ القضايا الشرعيَّة.

أمَّا الاتِّجاه الثَّالث: فهو الحلُّ الأوسط القائم على تحليل الروايات الحديثيَّة المتعلِّقة بمسألة جمع القرآن الكريم التي بدورِها قد تفاوتتْ هذه التَّقويمات بين من أنكر مصداقيَّة جميع الأحاديث، والروايات الحديثيَّة، والتَّاريخيَّة بهذا الشَّأن، وبين مجموعة لم تنكرْ جميع الأحاديث، والروايات الحديثيَّة؛ إذْ هي تصدِّق ببعضٍ، وترفض بعضًا الآخر، وربَّ سائلٍ يتساءل: أين يكمن أصل هذه الإشكاليَّة؟!.

Abstract

What was expressed by the Orientalist (Herbert Berg) that the debate will continue among the Orientalists, but to a very small degree. or rare among Arabs and Muslims regarding this issue(Codification of the Noble Qur'an), and the time at which it was officially recognized. The problem appeared in Europe, especially in Germany since the beginning of the nineteenth century, and perhaps before that, and since the German (Abraham Geiger) discussed the topic (d.1874 A.D) In his university thesis which he wrote in 1832, and followed it shortly after The German orientalist (Theodor Nöldeke) (d.1930), who stood on the same topic in his university thesis, which he published in his book first in Latin 1856, then in German 1860 AD; Likewise, when the renewer of Nöldeke's book (Frederick Schwally) concluded with opinions that were very different from those of Nöldeke, then another investigation followed by the orientalists Bergstrasser, Pretzl and all these orientalists were German scholars,

Scholars have continued to discuss this same axis to the present time in which the German-British orientalist (Herbert Berg) wrote in the year 2017, and that all these orientalists have represented several trends since the beginning of their study of the problem of Codification of the holy Qur'an, which we can distribute in three directions:

First: The first caliph, Umar ibn al-Khattab and Zaid bin Thabit, issued a fatwa to collect the Holy Qur'an, then Caliph Othman bin

Affan, and a group of Quraysh youths to collect it, and send it to the Islamic world at the time, I mean during the time of the third caliph, and thus it was officially approved.

Second: It is represented by rejecting the idea, on the grounds that it was gathered during the reign of those caliphs,And according to their opinion, it was compiled at the end of the second century of the Hijra, and perhaps the beginning of the third century AH / ninth AD, and that its collection was influenced by scholars of jurisprudence. An attempt by them to solve jurisprudential issues.

Third: it is the middle solution based on the analysis of hadith narratives related to the issue of collecting the Holy Qur'an, which in turn has varied between those who denied the authenticity of all hadiths,And the hadith and historical narrations in this regard, and among a group that did not deny all hadiths and hadith narratives. As they give credit to some and reject others, and a God questioner wonders: Where is the origin of this problem?!

المعْـروفُ لـدَى المتابعِـينَ مِنَ القُـرَّاءِ المحترَمِـين لبحُوثـي، المترجمةَ منْهـا خاصَّةً، ولبحُـوث الباحِثـينَ الآخريـنَ بخُصوصِ جمعِ القُـرآنِ الكَريـم بأنَّ هناك شـموليّةً في البحـثِ، وتركيـزًا كبيرًا في هذا الحقلِ منَ الدِّراسـات الإسـلاميَّة، وعندَ المسـتشرقين بشـكلٍ خـاصٍّ جـدًّا؛ وبحسـبِ مـا أبـداهُ المسـتشرقُ المعـاصرُ الـذي ألَّـف في هـذا المجـالِ، وهـو هربرتْ بـيرغ Herbert Berg، في بحثه الموسـومِ (جمع القـرآن وإقراره The Collection and Canonization of the Qur'Ān)، فإنَّـه مـنَ الرَّاجح أنْ تبقى هذه الجدليَّة، والنِّقاشُ قائمَينِ بين المسـتشرقينَ، من دونِ العَربِ، والمسـلمينَ، مستمرَّةً حـولَ الجمْـعِ؛ أي: جمع القُرآن الكَريـم، وحول تأليفِه؛ أي: إشـكال تأليف القرآن، في المسـتقبل المنظور؛ لأنَّ هنـاك بُعدًا زمنيًّا طويـلًا جدًّا بين الحاضر الـذي يعيش فيه هذا المستشرقُ، أو ذاك، وبين عملية جمع القرآنِ الكريم الأوَّل، أو جمع الكتاب الأوَّل، وبين شكل النَّصِّ، ولفظِه، وبيان الرَّأي، لاسيَّما بسببِ الذي وصلَنا منَ الرِّوايات بخُصوص القِراءاتِ القُرآنيَّة. وهنا وهو ما ينبغِي أن يكونَ تكمنُ المركزيّةُ في منشإِ، وأصل القُرآن، وفي تطـوُّره، أو في إنمائِه، وهو لبُّ دراسـة الإسـلام في مرحلتِه المبكِّـرة. ويُردفُ قائلًا: ومهما يكُنْ فكلُّ ما يفكِّر فيه المرءُ في نظر (جون ونزبورو) التَّصحيحيَّة، الذي نبَّه العلماء المسـتشرقون في حقل الإسـلام المبكِّـر إلى أنَّ هناك فارقًا ملحوظًـا، ومتميِّزًا بين أصول المـوادِّ التي تطوَّرت إلى الكتاب المقدَّس، وبين الاعتراف بتلك الموادِّ، وإقرارها المعترف به من أجلِ أن يصبحَ كتابًا مقدَّسًا؛ فإنَّ الخلطَ بين هاتينِ العمليَّتين في حالة الإسلام أمرٌ غيرُ مستغربٍ؛ ففي المسيحيَّة واليهوديَّة؛ فإنَّ المعتقدَ به أنَّها موادَّ مصدرُها الوحي الإلهيِّ (الله)، وهـي في الواقع قد كُتبتْ بعد عقودٍ، أو قرونٍ من أصلِها، ومن المؤكَّد أنَّها لم تقرَّ، ولم يُعـترفْ بها فحسـب إلَّا بعد قـرنٍ، ونصفٍ على الأقلِّ، وأكثر مـن القرن، والنِّصف

بالنِّسبة إلى حالة المسيحيَّة التي نفذت من قبل الكنيسة، غير أنَّ القرآن نفسَهُ يصرِّح بأنّه كلام الله، إنَّ كلًّا من القرآن، والحديثِ، والرِّواية يمكنُنا أن نقرأَهُما على أنَّها تتضمَّن المعْنى بأنَّه «من إقرار إلهيّ، ومن جمع إلهيّ»[1].

إنَّ ما عبَّر عنه المستشرقُ (هربرت بيرغ) من أنَّ الجدالَ سوف يبقى مستمرًّا بين المستشرقين، وإلى درجةٍ قليلةٍ جدًّا؛ بلْ نادرة بين العربِ، والمسلمين بخصوصِ جمع القرآن الكريم، والزَّمن الذي أُقرَّ به، أو اعتُرِفَ بِه رسميًّا؛ فالإشكاليَّة ظهرتْ في أوربا، لاسيَّما في ألمانيا منذُ مطلع القرن التَّاسع عشر، وربَّما أقدم من ذلك، ومنذُ أنْ ناقشَ الموضوع (إبراهام جيجر) الألمانيّ (ت ١٨٧٤م) في رسالته الجامعيَّة التي كتبَها في سنة ١٨٣٢م، وأعقبه بعد مدَّةٍ وجيزةٍ المستشرق (ثيودور نولدكه) الألمانيّ (ت١٩٣٠م)، والذي وقفَ على الموضوع نفسه في رسالته الجامعيَّة التي نشرها في كتابه باللاتينيَّة في سنة ١٨٥٦ أوَّلًا ثم باللغة الألمانيَّة في سنة ١٨٦٠م؛ وكذلك عند محقِّقِ، أو مجدِّد كتاب نولدكه (فردريك شاولي Schwally) الذي خلص إلى آراءٍ مختلفةٍ كثيرًا عن آراء نولدكه، ثمَّ أعقب ذلك تحقيقًا آخر قام بِهِ المستشرق بيرجستراسر Bergstrasser، وبرتزل Pretzl وجميع هؤلاءِ المستشرقينَ منَ العُلماء الألمان، واستمرَّ العُلماءُ في معالجة هذا المحور نفسه منذئذ إلى وقتِنا الحاليّ الذي كتب فيه المستشرق الألمانيّ البريطانيّ (هربرت بيرغ) في سنة ٢٠١٧م، وأنَّ جميع هؤلاءِ المستشرقين قد مثَّلوا منذُ بداية معالجتهم إشكاليَّة جمع القرآن الكريم ثمَّة اتِّجاهات يمكنُنا توزيعُها على ثلاثة اتِّجاهات:

(1) Herbert Berg "The implication of and the opposition to the Methods and Theories of John Wansbrough and the study of Early Islam (Berlin-New York Mouton de Gruyrer,1997. P. 4.

وعن مالك بن نويرة ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٢١٣-٢١٤، المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٠/ ٤٧١-٤٧٨.

الأوَّل: إنَّ القرآن الكريم قد أفْتى الخليفةَ الرَّاشديّ الأوَّل، والصَّحابيّ عمر بن الخطَّاب، وزيد بن ثابت على جمعه، ثمَّ الخليفة عثمان بن عفَّان، ومجموعة من شبابِ قُريش على جمعه، وتوزيعه على الأمصار الإسلاميَّة آنذاك، أقصد في زمن الخليفة الثالث، وبذلك أقرَّ رسميًّا.

أمَّا **الاتِّجاه الثاني**: فيتمثَّل برفض الفكرة على كونِه قد جُمع في عهد أولئك الخلفاء،وإنَّه وبحسب رأيهم قد جُمع في نهاية القرن الثاني للهجرة، وربَّما بداية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، وأنَّ جمعه كان بتأثير من علماء الفقه؛ محاولة منهم لحلِّ القضايا الشرعيَّة.

أمَّا **الاتِّجاه الثَّالث**: فهو الحلُّ الأوسط القائم على تحليل الروايات الحديثيَّة المتعلِّقة بمسألة جمع القرآن الكريم التي بدورِها قد تفاوتتْ هذه التَّقويمات بين من أنكر مصداقيَّة جميع الأحاديث، والروايات الحديثيَّة، والتَّاريخيَّة بهذا الشَّأن، وبين مجموعة لم تنكرْ جميع الأحاديث، والروايات الحديثيَّة؛ إذْ هي تصدِّق ببعضٍ، وترفض بعضًا الآخر، وربَّ سائلٍ يتساءل: أين يكمن أصل هذه الإشكاليَّة؟!.

أقول: بشكلٍ مُباشر يكمن في مصادرنا التأسيسيَّة، لا أكثر، ولا أقلّ، كما هو واضحٌ في الآتي:

إنَّه يكمن في رواية معركة اليمامة، وهي الرواية الدواءُ لهذه المشكلة، ولكن كيف؟ فلو أنعمنا النَّظر في المرحلة المبكِّرة جدًّا للمستشرقين الألمان نجدهم قد فرضوا فرضيَّاتهم، وتفسيراتهم، وتأويلاتهم الإيجابيَّة منها إزاء القرآن الكريم، وإزاء رسول الله صلى الله عليه وآله والسّلبيَّة منها الظالمة المبنيَّة على مجموعة منَ الافتراءات، والتخرُّصات، والاتِّهامات الباطلة على هذه المحاور الأساسيَّة، والحسَّاسة، وقد بُني ذلك على رواية معركة اليمامة؛ فمنذُ ظهور كتاب (ثيودور نولدكه) إلى ظهور كتاب (جون ونزبورو)

الأمريكيّ (دراسات قرآنيَّة) إلى كتاب (جون برتون) البريطانيّ (جمع القرآن) إلى (جون جيلركرايست John Gilchrist) من جنوب إفريقيا في كتابه (جمع القرآن)، وتتمحور تفسيراتهم انطلاقًا من رواية اليمامة.

ولم يقتصرِ الأمرُ على ذلك، فحسب، بل إنَّ جميع من وقف على مسألة جمع القرآن الكريم من العرب، والمسلمين، ومنذُ ورود هذه الرواية في صحيح محمَّد بن إسماعيل البخاريّ غير الصَّحيحة (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م أو في سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م) إنْ كان منَ الصِّحاح، أو من المسانيد، أو من أَلَّف عن المصاحف، أو من المحدِّثين، أو من مؤرِّخي السُّلطة الأمويَّة، والعبَّاسيَّة، وحتَّى وقتنا الرَّاهن؛ فإنَّ موضوع جمع القرآن الكريم مرتبطٌ ارتباطًا جذريًّا بهذهِ الرِّواية سوى المسلمين الشِّيعة؛ فإنَّ لهم رأيًا في ما يسمَّى بـ(حروب الردَّة)، ومعركة اليمامة، تلك التي ركَّزت عليها قصَّة سيف بن عمر، وتداولتها رواية معركة اليمامة عند البخاريّ، ومسلم، وغيرهما من المصادر السنيَّة؛ إذ رُوي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ يؤيِّد حروبَ الردَّة التي شنَّها الخليفة أبو بكر ضدَّ (مالك بن نويرة) وقومه؛ بلْ لم تكُنْ تلك الحروب بحسب نظر الإمام عليه السلام حروبَ ردَّة كما كانت تسمَّى، وكان موقف مالك بن نويرة من عدم تسليم الزَّكاة إلَّا إلى الخليفة الشَّرعيّ؛ فهو لم يمتنعْ عن تسليم الزَّكاة عن عدم اعتقاد بهذه الفريضة، الزَّكاة، كما صوَّرته روايةُ سيف بن عمر؛ بل لم يشأْ أن يسلِّمها إلَّا لمن يستحقُّها، وهو الخليفة الشِّرعيّ المنصوص عليه من قبل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله، وتبعًا لذلك فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يرتضِ ما فعلَه خالد بن الوليد من قتل مالك، وقد تبرَّأ إلى الله تعالى من فعله، ولولا الوضع الذي وضع فيه من قبل مؤتمر السَّقيفة؛ لأقام عليه الحدَّ، فمالك بن نويرة اليربوعيّ التميميّ سيِّدٌ من سادات قبيلة تميم في عهد النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، وقد أدرك الإسلام، وأسلم، وولَّاه رسول الله صلى الله عليه وآله صدقات قومِه بني يربوع، وبعد وفاة الرَّسول صلى الله عليه وآله امتنع مالك عن دفعِها. إنَّ

مالـك بن نويرة مـن كبار بني يربوع من بني تميم، وصاحـب شرف رفيع وأريحيَّة عالية بين العرب، حتَّى ضُربَ به المثل في الشَّـجاعة، والكرم، والمبادرة إلى إسـداء المعروف، والأخـذ بالملهـوف، وكانتْ له الكلمة النافـذة في قبيلته، حتَّى أنَّه لـمَّا أسـلم ورجع إلى قبيلته، وأخبرهم بإسـلامه، وأعطاهم فكرة عن جوهر هذا الدِّين الجديد، أسـلمُوا على يديه جميعًا، ولم يتخلَّفْ منهُم رجلٌ واحدٌ، وكان قد نالَ منزلةً رفيعةً عند النبيّ ﷺ حتَّى نصَّبـه وكيلًا عنهُ في قبض زكاةِ قومِه كلّهم، وتقسـيمها على الفُقراء، وهذا دليلُ وثاقتِه، واحتياطِـه، وورعِـه، وكانتْ وصيَّة الخليفـة الأوَّل أن يؤذِّنوا إذا نزلُوا منـزلًا؛ فإن أذَّنَ القومُ فكفُّوا عنهم، وإنْ لم يؤذِّنوا فاقتلُوهم، وإن أجابوكُم إلى داعيةِ الإسلام فاسألُوهم عنِ الزَّكاة؛ فإنْ أقرُّوا فاقبلوا منهُم، وإن أبَوا فقاتلوهم؛ فجاء خالد بن الوليد بمالك بن نويرة في نفرٍ من بني ثعلبة بن يربوع فاختلفتِ السريَّة فيهم، وكان فيهم أبو قتادة، فكان فيمن شـهد أنَّهم قد أذَّنوا، وأقاموا، وصلُّوا؛ فلمَّا اختلفوا أمرَ بهم فحبِسـوا في ليلة باردةٍ لا يقوم لها شيءٌ فأمرَ خالدٌ مناديًا فنادى: «أدفئوا أسراكم»، وهي في لغة قبيلة كِنانة القتل، وكنانـة قبيلةُ خالد، فظنَّ القوم أنَّه أراد القتـل، وتزوَّج خالد أم تميم امرأة مالك، وغاية مـا يقول العلماءُ عـن قصَّة مالك بن نويرة أنَّ خالد بن الوليد تأوَّل فأخطأَ، لاسـيّما وأنَّ مالـك بن نويرة منع الزَّكاة بعد موت رسـولِ الله ﷺ، ومنع قومَهُ من دفع الزَّكاة إلى أبي بكر، فضلًا عن علاقة مشـبوهةٍ واضحةٍ تمَّت بينه وبين سُجاح التي ادَّعتِ النبوَّة، وهذا ابن الأثير يقول في قتل مالك بن نويرة ما يأتي: «... ثمَّ سـار حتَّى قدم البطاحَ؛ فلم يجدْ بها أحدًا، وكان مالك بن نويرة قدْ فرَّقهم، ونهاهم عنِ الاجتماع، وقال: يا بني يربوع، إنَّا دُعينا إلى هذا الأمر؛ فأبطأنا عنه فلم نفلحْ، وقد نظرتُ فيه؛ فرأيتُ الأمر يتأتَّى لهُم بغيرِ سياسة، وإذا الأمر لا يسوسُـه النَّاسُ؛ فإيَّاكم ومناوأة قومٍ صُنِعَ لهُم، فتفرَّقوا، وادخلُوا في هـذا الأمر؛ فتفرَّقوا على ذلـك، ولـمَّا قدم خالدٌ البطاحَ بـثَّ السَّرايا، وأمرَهم بداعيةِ

الإسلام، وأن يأتوهُ بكلِّ من لم يجبْ، وإنِ امتنع أن يقتلوهُ، وكان قد أوصاهم أبو بكر أن يؤذِّنوا إذا نزلـوا منزلًا؛ فإن أذَّن القومُ فكفُّوا عنهُم، وإن لم يؤذِّنوا فاقتلُوا، وانهبُوا، وإن أجابوكم إلى داعية الإسـلام؛ فسـائِلوهُم عن الزَّكاة؛ فإن أقـرُّوا فاقبلوا منهُم، وإن أبَوا فقاتلوهمْ، قال: فجاءتْه الخيلُ بمالك بن نويرة في نفرٍ من بني ثعلبة بن يربوع؛ فاختلفتِ السَّريَّـةُ فيهم، وكان فيهم أبو قتادة؛ فكان فيمن شـهد أنَّهم قد أذَّنـوا، وأقاموا وصلُّوا؛ فلـمَّا اختلفوا أمرَ بهم فحبِسـوا في ليلةٍ باردةٍ لا يقوم لهـا شيءٌ؛ فأمر خالدٌ مناديًا؛ فنادى: أدفئـوا أسراكم، وهي في لغة كنانة القتلُ؛ فظنَّ القومُ أنَّه أرادَ القتلَ، ولم يردْ إلَّا الدفءَ، فقتلوهُم، فقتل ضِرارُ بن الأزور مالكًا، وسمع خالدٌ الواعية؛ فخرج، وقد فرغوا منهم؛ فقـال: إذا أراد الله أمـرًا أصابه، وتزوَّج خالد أم تميم امـرأة مالك؛ فقال عمر لأبي بكر: إنَّ سـيف خالـد فيه رهَقٌ، وأكثر عليه في ذلك؛ فقال: هيه يـا عمر! تأوَّلَ فأخطأ؛ فارفع لسـانك عن خالدٍ؛ فإنِّي لا أشيم سيفًا سـلَّه اللهُ على الكافرين، وودى مالكًا، وكتب إلى خالد أن يقدِمَ عليهِ؛ ففعل، ودخل المسجد، وعليه قباءٌ، وقد غرز في عمامته أسهمًا؛ فقام إليه عمر؛ فنزعها، وحطمها، وقال له: قتلت امرءًا مُسـلمًا، ثـمَّ نزوتَ على امرأتِه، والله لأرجمنَّـك بأحجارك! وخالدٌ لا يكلِّمه، يظنَّ أنَّ رأي أبي بكر مثله، ودخل على أبي بكر؛ فأخـبره الخبرَ، واعتذر إليه؛ فعـذرَهُ، وتجاوز عنه، وعنَّفه في التَّزويـج الذي كانتْ عليه العـربُ مـن كراهة أيَّام الحـرب؛ فخرج خالد وعمـر جالس؛ فقال: هلـمَّ إليّ يا ابن أم سـلمة؛ فعرف عمر أنَّ أبا بكر قد رضيَ عنه؛ فلم يكلِّمْه، وقيل: إنَّ المسـلمين لـمَّا غشَوا مالكًا، وأصحابه ليلًا- أخذوا السـلاح؛ فقالوا: نحن المسلمون؛ فقال أصحاب مالك: ونحن المسلمون، قالوا لهم: ضعوا السِّلاحَ؛ فوضعوه ثمَّ صلُّوا، وكان يعتذر في قتله أنَّه قـال: ما أخال صاحبكم إلَّا قال كذا وكـذا؛ فقال له: أوما تعدُّه لك صاحبًا؟ ثمَّ ضربَ عُنقَه، وقدم متمِّم بن نويرة على أبي بكر يطلبُ بدمِ أخيه، ويسأله أن يردَّ عليهم سبيهم؛

فأمر أبو بكر بردِّ السبي، وودَى مالكًا من بيت المال، ولـمَّا قدم على عمر، قال له: ما بلغ بك الوجدُ على أخيك؟ قال: بكيته حولًا حتَّى أسعدتْ عيني الذَّاهبةُ عيني الصَّحيحةَ، ومـا رأيتُ نارًا قط إلَّا كدتُ أنقطع أسـفًا عليه؛ لأنَّـه كان يوقد نارَهُ إلى الصُّبح مخافة أن يأتيـه ضيفٌ، ولا يعرف مكانهُ، قال: فصفْه لي، قال: كان يركب الفرسَ الحرونَ، ويقود الجملَ الثقالَ، وهو بين المزادتينِ النَّضوختين في الليلة القرَّة، وعليه شملة فلوت، معتقلًا رمحًا، خطلًا، فيسري ليلته، ثمَّ يصبح، وكأنَّ وجهَهُ فلقةُ قمرٍ»[1].

والعجيـبُ أنَّ البخـاريَّ يردُّ على مـن يخطِّئ خالدًا في زواجهِ مـن زوجة مالك بن نويـرة الجميلـة، ولـمَّا تكتمـلْ عدَّتها بحسـب الشَّرع الإسـلاميّ؛ فقارنَ ذلـك بزواج النبـيّ ﷺ بصفيّـة بنت حُيي بن أخطب عندما قُتل زوجها فيقول مـا نصُّه: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ لِنَفْسِـهِ فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغْنَا سَـدَّ الرَّوْحَاءِ حَلَّتْ فَبَنَى بِهَا ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ صَغِيرٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةَ رَسُـولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ عَلَى صَفِيَّةَ ثُـمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْـمَدِينَـةِ قَالَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُـحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ»[2].

هكـذا إذن بحسـب نظريَّة البخـاريّ يصـحُّ زواجُ خالدٍ، كالنبـيّ ﷺ، من زوجة الشَّهيد مالك بن نويرة الذي شبَّهه بحُيِيِّ بن أخطب اليهوديّ!!.

(١) ينظر: صحيح البخاريّ: ٧/ ٢٠٨١، الحديث ٢٠٨١.

(٢) صحيـح البخاريّ: ٩٢٠، الحديث ٤٩٨٦، ابن النديم، السـيوطيّ، الإتقـان في علوم القرآن، تحقيق حامد بن أحمد الطاهر البسيونيّ، دار الفجر للتراث، ٢٠٠٦: ١/ ١٦٨.

ما حقيقةُ معركةِ اليمامة، وماعلاقتُها بجمعِ القُرآن

يرجع هذا الحدثُ إلى هذه المرحلة الأولى من التَّدوين التاريخيّ الإسلاميّ أيضًا، وفي مدَّة خلافة أبي بكر، أمَّا لبُّ الحدث فمتعلِّق بالحقل نفسه (جمع القرآن أو جمع المصاحف)، وأمَّا عناصر الحدث؛ فهما الخليفة أبو بكر، وعمر بن الخطَّاب قبل تولِّيه الخلافة؛ إذْ ينقل البخاريُّ في صحيحِه، وتتكرَّر مفهوميَّة هذا الخبر نفسه حرفيًّا إلى أبعد الحدود في مصادر أُخَر سنيَّة، بخصوص العوامل الأساسيَّة التي دفعت الخليفة، أو عمر بن الخطَّاب الذي أوصى بالأهميَّة القُصوى لعمليَّة جمع القرآن الكريم التي انتهَتْ بأنْ يوليانِ إنجاز مَهمَّة هذه العمليَّة الرَّائدة إلى الصحابيّ زيد بن ثابت، إنَّها آلية تنفيذيَّة جازمة، وحاسمة بالفعل، غير أنَّ قراءة تفكيكيَّة لمحتوى الخبر هذا ستثيرُ نوعًا من التكدُّر، والتَّساؤل. جاء نصُّ الرواية عند البخاريّ بسندِ ابن شهاب الزهريّ عن عبيد ابن السباق [الثقفيّ] ونصُّه: «قال زيد: قال أبو بكر، بعد أنِ اجتمعتْ آراء الخليفة، وعمر على الاختيار؛ أي اختيار زيد... قالا له: إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا تنهمك [وجاء في رواية أخرى لا نتَّهمك وهي ربَّما الأصحّ، وإنَّ الأخيرة هي بسبب سوء في النَّسخ أو الطباعة]، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فتتبَّع القرآنَ فاجمعه؛ فوالله لو كلَّفوني نقل جبل من الجبالِ ما كان أثقلَ عليَّ ممَّا أمرني من جمع القرآن».

ففي هذا النصِّ إشكالاتٌ أساسٌ؛ فما الذي قصده الخليفة إنَّه أمرَ زيدًا بجمع القُرآن؛ لأنَّ زيدًا كان شابًّا عاقلًا؟. أيعْني هذا إنَّ كتَّاب الوحي الآخرين ليسوا بشبابٍ؛ بلْ ليسوا بعُقلاء، ومتى كان الشابُّ عاقلًا، وعبد الله مسعود الصحابيّ الجليل، وأُبي ابن كعب، وهما من الشيوخ غير عقلاء، وغير عدول في هذه المسألة التي في حقيقتها لا تحتاج إلى الشَّباب بقدر ما تحتاج اليه منَ الشُّيوخ الذين خبَرُوا صحبةَ الرَّسول ﷺ، أوْ بالأحرى بحاجة إلى ابن عمِّه، وكاتب وحيه الإمام عليّ عليه السلام، وبحسبِ رواية

البخاريّ عند السيوطيّ نقلًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**خذُوا القرآنَ من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبيّ بن كعب**»؛ أي: تعلَّمُوا منهُم، وكان ثلاثةٌ من هؤلاء الصَّحابة على قيد الحياة زمنَ الخليفة الأوَّل ما عدا سالمَ بن معقل مولى أبي حذيفة الذي قُتل في وقعة اليمامة، أليس هو- عبد الله بن مسعود- ممَّن قال فيه رسولُ الله ﷺ: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد**»[1]، وروى الأعمش، قال: «قال ابن مسعود: لقد أخذتُ القرآنَ من فيِّ رسول الله ﷺ سبعينَ سورة وإنَّ زيد بن ثابت لغلامٌ في الكتَّاب له ذؤابة».

فكيفَ غابتْ هذا المواصفاتُ العلميَّة للصحابة المعوَّل عليهم بنصِّ حديث رسول الله ﷺ عن مخيال الخليفة، وعمر؟، والحقيقة المكدِّرة الأُخرى أنَّ الصحابيّ زيد بن ثابت قد أسلمَ مع أهله، ولـمَّا يتجاوز عمرُه إحدى عشرة سنة، فكيف يكون مؤهَّلًا لأهليَّة جمع القرآن؛ لكونه إبَّان عهد الخليفة كان شابًّا عاقلًا؟!!.

ومهما يكُنْ من أمرٍ، فيحدِّثنا البخاريُّ في صحيحه، وورد الخبر عند علماء آخرين بخصوص بدء الصحابيّ زيد عمله في جمع القرآنِ؛ إذ يقول: «فتتبَّعتُ القرآنَ أجمعَه من العُسُبِ، واللخاف، وصدور الرِّجال، حتَّى وجدتُ آخر سورة التَّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره»، والآية الكريمة هي: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، حتَّى خاتمة براءة، وقيل في رواية أخرى عند البخاريّ في صحيحه أيضًا عن ابن شهاب الزهريّ أيضًا عن إسماعيل، وخارجة بن زيد بن ثابت (أي ابن زيد بن ثابت): «قال: نسختُ الصُّحفَ في المصاحف؛ ففقدتُ آيةً من سورة الأحزاب [يلاحَظ في النصِّ السابق من سورة التَّوبة] كنتُ أسمعُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأ بها؛ فلم أجدْها إلَّا مع خزيمة بن ثابت الأنصاريّ [يلاحَظ

(١) ينظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (دار أحياء التراث العربي -بيروت) مجلد ١ ص ٢٣٧. السيوطي، الاتقان ج١ ص ٢٠٢.

هنـا أنَّ زيدًا كان أنصاريًّا أيضًا] الذي جعل رسـول الله صلَّى الله عليه وسـلَّم شـهادته شـهادة رجلَين [يلاحَظ أنَّ مسـألة شـهادتِهِ بشـهادتَينِ لم ترِدْ في نصِّ البخاريّ بوصفها دليـلًا على مـا كان أبو خزيمة يتمتَّع به من سـمعة بين صفوف الصَّحابة؛ أي: شـهادتُه تعـادل شـهادتَينِ]، وهو قولُـه تعـالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب، آية: ٢٣)».

ولنبـقَ مع صحيح البخاريّ في هذه النُّصوص؛ إذ قالَ في حديثه (٤٠٤٩): إنَّ ابن شـهاب الزهريّ أيضًا قد أخبره ابن زيد بن ثابت (أي خارجة) قوله «إنَّه سـمع زيد بن ثابت يقول: فقدت آيةً من الأحزاب حين نسخْنا المصحفَ [يلاحَظ كلمة نسخنا بمعنى زيد وآخرون]، كنتُ أسـمعُ رسول الله ﷺ [ملاحظة: الجملة غير واضحة تاريخيًّا] يقرأ بها، فالتمسـناها؛ فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاريّ [يلاحَظ لماذا التمسها زيد؟ ثمَّ وجدها مع خزيمة الأنصـاريّ] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ فالحقناها في سورتها». ولننظرْ إلى ما قاله البخاريُّ أيضًا في صحيحه من رواية عن ابن شـهاب الزهريّ إنَّ ابن السـبَّاق أخبرهُ نصَّ الرواية التـي ورد فيهـا «حتَّى وجدت من سـورة التوبة آيتَينِ [بمعنى آيتَـين وليس آية واحدة، ومـن سـورة التوبة لا من سـورة الأحزاب] مع خزيمـة الأنصـاريّ لم أجدها مع أحد غيره».

ولندقِّـقْ في روايـة البخاريّ الأُخرى التي وصلتْ عن طريق ابن شـهاب الزهريّ أيضًا عن الليث قال: «... قال أبي خزيمة، وقال موسى عن إبراهيم حدَّثنا ابن شهاب: مـع أبي خزيمـة، وتابعه يعقـوبُ عن أبيه، وقال أبـو ثابت: حدَّثنا إبراهيـم، وقال: مع خزيمة أو أبي خزيمة» [بمعنى أنَّ هناك شـكًّا فيمن التمسهُ زيد بن ثابت ليجدَ عنده آيةً من سورة براءة، أو آيتَين أو آية من سورة الأحزاب أو غير ذلك] في الوقت الذي نقرأ في

رواية اعتمدها السيوطيّ نقلًا عن طريق البغويّ في كتابه شرح السنَّة، ونصّها: «إنَّ زيد ابن ثابت شهد العرضةَ الأخيرة» عرضة القرآن من قبل جبريل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله التي بيَّن فيها ما نُسِخَ، وما بقيَ، وكتبها لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقرأها عليه، وكان يُقرىء النَّاسَ بها حتَّى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه».

كيف إذن نوفِّق بين أنْ يكونَ قد شهد زيدًا العرضةَ الأخيرة، وبيَّن أنَّه قد فاتتهُ آياتٌ منَ القرآن الكريم، هذا من ناحيةٍ.

أمَّا من الناحية الأخرى؛ فإنَّ المتَّفق عليه أنَّ زيدًا لم يكن شاهدًا للعرضة الأخيرة التي عرضَها جبريلُ عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنَّ عبد الله بن مسعود هو الذي شهِد القراءة الأخيرة اعتمادًا على ما رواه النسائيّ عن طريق أبي ضبيان قال: «قال لي ابن عبَّاس: أي القراءَتَين أقرأ ؟ قلتُ: القراءة الأولى، قراءة ابن أمِّ عبد، قال ابن عباس: بل هي الأخيرة؛ فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعرض على جبريل، قال: وعند الحاكم بسندٍ صحيح أنَّ ابن عبَّاس قال: أي القراءَتَين ترون كان آخر القراءة؟ قال قراءة زيد بن ثابت؛ فقال: لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعرض القرآن كلَّ سنة على جبريل؛ فلمَّا كان السنة، التي قُبِضَ فيها عرضَه عليه مرَّتين، وكانتْ قراءة ابنِ مسعود هي الأخيرة».

وذهبتْ رواية ابن أبي الحديد إلى ذلك برواية ابن عبَّاس عن عبد الله بن مسعود حينما قال: «روي عن ابن عبَّاس أنَّه قال: قراءة ابن أمِّ معبد هي القراءة الأخيرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعرض عليه القرآن في كلِّ سنةٍ من شهر رمضان؛ فلمَّا كان العامُ الذي توفِّي فيه عرض عليه دفعتَينِ؛ فشهد عبد الله ما نسخ منه، وما صحَّ؛ فهي القراءة الأخيرة»[1].

(١) ينظر صحيح البخاري: ٩٢٠، حديث ٤٩٠٦، و٥٠١، حديث ٢٨٠٧، و٧١٤، حديث=

لم ينتـهِ أمرُ هذه الرواية، أو القصة المضطربة بعدُ؛ لأنَّ أبا بكر عبد الله السجستانيّ لـه روايةٌ، بعضُها متداخلٌ مع الرواية في أعلاه، وبعضٌ آخرُ منها مختلفٌ عنها؛ فالرواية التـي رواها ابن شـهاب الزهـريّ عن خارجة بن زيـد بن ثابت، قال فيهـا: «لـمَّا كتبت – القـول هنـا لزيد– المصاحف فقدتُ آيةً كنتُ أسـمعُها من رسـول الله صلَّى الله عليه وسـلَّم؛ فوجدتُها عند خزيمة بن ثابت الأنصـاريّ ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ إلى (تَبۡدِيلًا) [يلاحَـظ الروايـة في أعلاه بشـأن الآية المفقودة وبشـأن كلمة إلى تبديلا]، وكان خزيمة يُدعى بذي الشَّـهادتينِ أجازَ رسـولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم شهادتَهُ بشهادةِ رجُلين، قال الزهريّ وقُتِلَ مع عليّ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ صفِّين».

ويسـتمرُّ السجستانيّ في الموضوع نفسِه فيعرِّج على رواية ثانيةٍ للزهريّ عن خارجة بن زيد الذي قال: «لـمَّا نسخنا– والقول هُنا لزيد– المصحف [في الرّواية السابقة أنَّ هذا القول كان لخارجة وزيد المصاحف] منَ المصاحف فقدت آيةً من سـورةِ الأحزاب [في الرواية السَّابقة غير ذلك] كنتُ أسمعُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأها فالتمسْتُها [سابقًا فوجدتُها] فلم أجدْها مع أحدٍ [في الرواية السابقة فوجدتُها من دون أن يلتمسَها، أو يبحث عنها] إلَّا مع خزيمة الأنصاريّ الذي جعل رسـول اللهﷺ شـهادته بشـهادةِ رجُلين، قـول الله تعـالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾». انتهى قول زيد من دون ذكر إلى (تَبۡدِيلًا).

ولم يتوقَّف السجسـتانيّ عند هاتينِ الروايتَينِ؛ فيقول تحـت عنوان جديد هو (خبرُ قولـهؑ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ ... ﴾ الآيـة)[1] في أنَّ عبَّاد عـن يحيى بن عبَّاد

=٤٠٤٩، و٨٢٨–٨٢٩، حديـث ٤٦٧٩، و٨٦٤، حديـث ٤٧٨٤، و٩٢٠–٩٢١، حديـث (٤٩٨٨)، و٩٢١، حديث ٤٩٨٩، و١٢٦٩–١٢٧٠، حديث ٧١٩١.

(١) أبا بكر عبد الله السجستانيّ، المصاحف، المحقِّق حامد بن أحمد الطاهر البسيونّي، السجستانيّ، المصاحف م.ن: ١٥٦ الهامش، ابن أبي الحديد، شرح:١/ ٢٣٧.

عـن أبيه عبَّاد بن عبـد الله بن الزبير، قال: «أتـى الحارث بن خزيمة بهاتَـينِ الآيتَين من آخـر سـورة بـراءة ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ إلى قولِه ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إلى عمـرَ؛ فقـال: من معك على هـذا ؟ قال: لا أدري، والله إلَّا أنِّي أشـهد أنِّي سـمعتُها من رسـول الله صلَّى الله عليه وسـلَّم، ووعيتُهـا، وحفظتُها [يُلاحَظ هنـا أنَّ الرَّجل هو الحارث بن خزيمة لا خزيمة الأنصاريّ، ولعلَّه ابنهُ، والله أعلم]، فقال عمر: وأنا أشهدُ لسـمعتُها من رسـول الله صلَّى الله عليه وسـلَّم؛ ثمَّ قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سـورة على حدةٍ؛ فانظروا سـورةً منَ القـرآن فألحقوها فيها فألحقتهـا [هنا ربَّما المقصود الحارث وليس عبَّاد بن عبد الله بن الزبير] في آخر براءة [يُلاحَظ أنَّ الرواية الأولى كانت لزيد بن ثابت، وكانت في زمن الخليفة الأوَّل لا في زمن الخليفة الثاني]»[1].

ولننـصرفْ إلى مـا أدلى به السجسـتانيّ في كتابه المصاحف، وهـي رواية على عهدة الرَّبيـع بـن أنس عن أبي العالية عـن أبي بن كعب قال: «إنَّهم جمعـوا القرآن [يُلاحَظ في أعـلاه المصاحف] من مصحـف أُبي؛ فكان الرِّجالُ يكتبون يمـلي عليهم أُبي بن كعبٍ؛ فلمَّا انتهوا إلى الآية التي في سـورة بـراءة ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أثبتـوا أنَّ هـذه الآية آخر ما أنزل الله تعالى من القرآن؛ فقال أُبي بن كعب: إنَّ رسـول الله صلَّى الله عليه وسـلَّم قد أقرأني بعدَ هذا آيتينِ ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ إلى آخر السُّورة [طبعًا ينبغي أن يقول إلى آخر الآية]، قال: فهذا آخر ما نزل من القرآن».

(١) السجستانيّ، المصاحف، تحقيق آرثر جفري، طبعة أولى، دمشق، ٢٠٠٤: ٢٩-٣١. والمعلومات التي أدلى بها السجستانيّ قد اعتمدها مع ثمَّة إضافات على صحيح البخاريّ في الأحاديث بأرقام ٤٩٨٦، ٤٩٨٧، ٤٩٨٨

بعدها مباشرةً يدلي السجستانيّ برواية تكاد تكون قد أضرَّت ضررًا كبيرًا بجميع رواياته الآنفة الذكر؛ ففي روايته عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: «أراد عمر ابن الخطاب أن يجمع القرآن فقامَ في النَّاس؛ فقال: من كان تلقَّى [هاهنا فالمعروف عند الصحابة بأنَّ هناك كتَّابا للوحي] من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا منَ القُرآن؛ فليأتِنا به [الرواية الأساس في هذه القصَّة تجعل عمرَ ينصحُ أبا بكر بجمع المصحف؛ لأنَّ القتل استحرَّ بالقُرَّاء من أهل اليمامة؛ فكيف نوفِّق بين تلك الرواية وهذه؟]، وكانوا كتبوا ذلك في المصحفِ، والألواح، والعُسب كان لا يقبل من أحدٍ شيئًا حتَّى يشهد شهيدان؛ فقُتِلَ، وهو يجمعُ ذلك [المعروف أنَّ المصحف الذي سبق أن جمعه زيد كان معه؛ أي: مع عمر بن الخطَّاب، وبعد مقتله تركه عند ابنته حفصة زوجة رسول الله ﷺ]؛ فقام عثمانُ بن عثمان؛ فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء؛ فليأتِنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتَّى يشهد عليه شهيدان؛ فجاءَ خزيمة بن ثابت، فقال: إنِّي قد رأيتكم تركتم آيتينِ لم تكتبوها، قال: وما هما ؟ قال: تلقيتُ من رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى آخر السُّورة، قال عثمانُ: وأنا أشهد أنَّهما من عند الله؛ فأين ترى أن نجعلَها؟ قال: اختمْ بهما آخر ما نزل من القرآن؛ فخُتمتْ بهما براءة»[1].

ومع هذا وذاك، لنرجِعْ إلى رواياتٍ تفيد بأنَّ القرآن المجيد هو بالأصل كان يكتبُ في أيَّام حياة رسول الله ﷺ؛ إذ روى السيوطيّ نقلًا عن الحاكم النيسابوريّ في كتابه المستدرك أنَّ القرآن الكريم قد جُمعَ ثلاثَ مرَّات أحدها بحضرة النبيّ ﷺ؛ ثمّ أخرجَ بسندٍ على شرط الشَّيخَين عن زيد بن ثابت نفسِه، قال: «كنَّا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآنَ من الرِّقاع».

(١) السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتاب العربيّ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م: ٢٠٨-٢١٠.

ويعقِّب البيهقيُّ على ذلك بقوله: «يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرِّقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبيّ صلى الله عليه وآله».

وفي النصِّ الذي ذكره البخاريُّ آنفًا مسألةٌ أخرى لا تقلُّ أهميَّةً عن ذلك التضارُب بخصوص شخصيَّة زيد بن ثابت وكونه رجلًا شابًّا؛ فقد وصف الخليفةُ، وعمر زيدًا بأنَّه عاقلٌ، ولا يتَّهمانه؟ فماذا كان يدور برأس الخليفة، وعمر حينما قالا: لا نتَّهمك؟ أكان الصَّحابة الذين ذُكِروا في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله متَّهمين بعدم المصداقيَّة في حفظهم القرآن المجيد، أو بكونهم من المنتحِلين، أو من المدلِّسين، أو من المنهمكين في الأمور السياسيَّة أم ماذا؟ أإنَّهم كانوا مصابين بأيِّ مرضٍ عقليّ؟ وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **«خذُوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأُبَي بن كعب»**.

هلْ كان المقصود بالكلمة الإمام عليًّا عليه السلام؟ فيذكر السيوطيُّ أنَّ الإمام عليه السلام كان أوّل من جمع كتاب الله؛ فحينما توفِّي رسول الله صلى الله عليه وآله قال الإمام عليه السلام: **«آليت ألَّا آخذ عليَّ ردائي إلَّا لصلاةِ جمعة حتَّى أجمع القرآن فجمعته»**؛ وسند هذه الرواية أوردَهُ ابن الضَّريس في فضائل الإمام عليه السلام عن محمَّد بن سيرين عن عِكرمةَ، قال الإمام: «لـمَّا كان بعد بيعة أبي بكر قعدَ عليُّ بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتَك؛ فأرسلْ إليه، فقال: أكرهتَ بيعتي؟ قال: لا والله، قال: ما أقعدك عنِّي؟ قال: **رأيت كتابَ الله يُزاد فيه؛ فحدَّثت نفسي لا ألبس ردائي إلَّا لصلاة حتَّى أجمعه**، قال له أبو بكر: فإنَّك نِعْمَ ما رأيت، قال محمَّد، فقلت لعِكرمة: ألَّفوه كما نزل الأوَّل؛ فالأوَّل، قال: لو اجتمعتِ الإنس والجنُّ على أن يؤلِّفوه ذلك التأليف ما استطاعوا».

ويعلِّق السيوطيُّ على هذه الرواية بقوله: «بإسناد حسن ابن الضَّريس في فضائل القرآن»، ثمَّ توقَّف السيوطيّ، ولعلَّه يهدف إلى التَّشكيك بهذه الأقوال في الإمام عليّ عليه السلام، فقال ما نصُّه: «ولكن عكرمة لم أرَهُ قد روى عن عليٍّ رضي الله عنه»، وفوق هذا فإنَّ

السيوطيّ يذكر رأيًا لابن أشته في كتابه المصاحف، وعن ابن سيرين قوله: «وفيه- إنجاز الإمام عليه السلام- أنَّه كتب في مصحفه النَّاسخ والمنسوخ، وإنَّ ابن سيرين قال: فطلبت ذلك الكتابَ، وكتبتُ فيه إلى المدينة؛ فلم أقدرْ عليه».

وابن النديم يورد روايةً عن ابن المنادي عن هذا الخبر المهمِّ جدًّا الذي حدَّثه به الحسنُ بن العبَّاس، قال: أخبرت عن عبد الرحمن بن أبي حمَّاد عن الحكم بن ظهير السَّدوسيّ عن عبد خيّر [وهو الشَّخص نفسه الذي اعتمده السيوطيّ نقلًا عن كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستانيّ في خبرَين، الأوَّل إنَّ هذا العبد الخير سمع الإمام يقول: «أعظم النَّاس في المصاحف أجرًا أبو بكر رحمه الله، على أنَّ أبي بكر هو أوَّل من جمع كتاب الله».

وهي روايةٌ تتناقضُ بتضمينها رحمة الله على أبي بكر، إذ إنَّ أبا بكر قد كان حيًّا حينما جمعَ له زيد بن ثابت القرآنَ، وإنَّه أيضًا كان حيًّا حينما أبلغهُ الإمامُ أنَّه قعد في البيت، وأقسم أن لا يقع عن ظهره رداءٌ حتَّى يجمع القرآن.

وتتناقضُ هذه الرواية مع ما عبَّر أبو بكر عن تأييده لعمل الإمام عليه السلام بقوله: «فإنَّك نِعْمَ ما رأيت»؛ فالعبد الخير هُنا يهدف إلى دعم الإمام لمشروع الخليفة، وعمر في تسليم أمر جمع القرآن إلى زيد بن ثابت متجاوزًا بهما الصَّحابة من كتَّاب الوحي، وكان الإمام أحدهم، ولكن العبد هذا يرتقي إلى مرتبة أرقى حينما يقول عن سماعه ذلك من الإمام مباشرةً؛ فالرواية تقول: [إنَّ العبد الخيّر ينقل عن الإمام] «عن عليّ عليه السلام أنَّه رأى من النَّاس طيرةً عند وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله؛ فأقسم أنَّه لا يقع عن ظهره رداؤه حتَّى يجمع القرآن؛ فجلس في بيته ثلاثة أيَّام حتَّى جمع القرآن؛ فهو أوَّلُ مصحفٍ جُمع فيه القرآن من قلبه»[1].

(١) تاريخ اليعقوبيّ: ٢/ ٩٣.

فالـذي أعتقـدُهُ بتواضعٍ أنَّ حلَّ شـفرة (لا نتَّهمك) التي شـغلت حيِّزًا في مسـألة اختيـار الخليفة، وعمر لزيدٍ لهذه المهمَّة العَسـيرة؛ إنَّما هو يتعلَّـق بالمصاحف التي كانتْ موجودةً عند الصَّحابة الذين كانوا هم الكتَّاب الحقيقيِّين للوحي، ولم يكنْ زيد بن ثابت من بينهم، والأهمُّ من كلِّ ذلك إنَّ الإشـارة إلى مَن هو المتَّهم الوحيد في التَّعبير القاسي الذي اسـتعمله الخليفة، وعمر، وهما يقصدان صحابةَ الرَّسـول صلى الله عليه وآله الأجلَّاء ممَّن كانوا يحفظون عن ظهر قلب القرآن الكريم، إن كانوا من بين الذين شـهدوا العرضةَ الأَخيرة التـي عرضهـا جبريلُ عليه السلام، وإن كانوا ممَّن قعـد في بيته ثلاثةَ أيَّام عازمًـا على جمع القرآن معتمدًا على القرآن الذي سـلَّمه إيَّاه رسـولُ الله صلى الله عليه وآله، ومعتمدًا على حفظهِ والبيان الذي أودعـهُ الله تعالى في صدرهِ من الرَّسـول الكريم، والعلم اللدنِّـيّ؛ وهو الإمامُ عليّ عليه السلام، فـكان بالفعل أوَّل مصحفٍ كامل لا تنقصه آيةُ التَّوبـة، أو آية أو آيتين أو أكثر من ذلك من سـورة الأحزاب، إنَّه المصحف! كما علَّق عليه محمَّد بن سيرين، وأخرجه ابن أشته، قائلًا: إنَّ الإمام ضمَّن في مصحفه (النَّاسـخ والمنسـوخ)، ولـو أضفنا إلى هذا الوصف لمصحف الإمام ما ذكرهُ اليعقوبيُّ في تاريخه من إشـارة تعـبِّر عن فرحة الإمام عليه السلام، وهو يحمـل مصحفـه بعد الثَّلاثة أيَّام؛ إذ يقـول: «وروى بعضُهم أنَّ عـليّ بن أبي طالب كان جمعـه لـمَّا قبض رسـول الله صلى الله عليه وآله، وأتى به يحملـه على جملٍ؛ فقال: هذا القـرآن قد جمعته. وكان جزَّأه سبعة أجزاء»[1].

ولعـلَّ هناك دلائل دالَّـة على أنَّ اختيار الخليفـة، وعمر لزيد بـن ثابت الذي كان موقفـه إلى جانـب الخليفة وعمر، هو الدَّافع في هذا الاختيار، فهو شـابٌّ، عاقلٌ، وغير متَّهـم بموالاة الإمام عـليّ عليه السلام، ولا بموالاة عبد الله بن مسـعود، وأُبيّ بن كعب، ورأي الصحابيّ ابن مسعود السَّابق واضحٌ جدًّا في هذا المجال؛ إذ قال: «أخذتُ القرآنَ من فيّ

(١) ابن حبيش، تحقيق ونشر الدكتور أحمد غنيم، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م: ١٦٠-١.

رسول الله صلى الله عليه وآله سبعين [أو كما قيل تسعين] سورة، وإنَّ زيد بن ثابت لغلامٌ في الكتَّاب له ذؤابة»، والرَّأيُ هذا الذي انفرد به ابن أبي الحديد يمثِّل خير تعبير عن كيف كان جيل الشَّباب يسعى دائمًا إلى الحصول على مكاسب الإدارة، والتقرُّب من الحكَّام لحماستهم، وعنفوان الشَّباب الذي يطمح بالمنزلة، والرِّفعة وهذا ربَّما كان هو الذي دفع زيدًا إلى ذلك، فكيف بالصحابيّ زيد وهو يتذكَّر قبل سنوات شيخه، وأُبيّ بن كعب، وهما يكتبان الوحيَ لرسول الله؟!!، وهذا ما يفسِّره كلام الخليفة وعمر بقولهما بحسب توصيف البخاريّ في صحيحه الذي تكرَّر في المؤلَّفات السنيَّة: «أنَّك رجل شابٌّ عاقل لا نتَّهمك، وقد كنت تكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله». في الوقت الذي ينصُّ السيوطي اعتمادًا على صحيح البخاريّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله إنَّه سمع النبيَّ صلى الله عليه وآله يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأُبيّ بن كعب؛ أي: تعلَّموا منهم».

هنا أيضًا علينا أن لا نغفل موقفَ زيد بن ثابت، عندما اندفع النَّاسُ بعد مقتل الخليفة الثَّالث لاختيار الإمام عليّ عليه السلام للخلافة؛ فكان زيد وابن عمر من الذين اعتزلوا البيعةَ، ولم يكونا في صفِّ الإمام عليه السلام، وهو موقفٌ لا شكَّ أنَّ له جذورًا تاريخيَّة؛ فهل ترى أيُّها القارئُ اللبيبُ إنَّه غير متَّهم من جانب الخليفة، وعمر في ولائه السياسيّ أيضًا؟؛ فالمؤرِّخون ساروا وفاقًا لما توافر لهم من الرواية الحديثيَّة من خبرٍ، أو سبقٍ تاريخيّ في الطريقة التي جُمع فيها القرآن الكريم من دون أن يُبدوا أيّ رأيٍ مُستقلٍّ للاختلاف، أو التَّعبير عن عدم التَّوازن في نسيج هذه الرواية الحديثيَّة المقدَّسة، أو حتَّى في تضارب أهدافها مع التَّاريخ زمانًا، ومكانًا، ومفهوميَّةً، ومثال على ذلك الرُّواية التي تفرَّد بها صاحبُ الصَّحيح الذي يعدُّ مصدرًا مِثاليًّا بالنِّسبة إلى المحدِّثين، وأنصار المنهج الحديثيّ المتعلِّقة ببدء الخليفة أبي بكر التَّفكير في الإسراع بعمليَّة جمع القرآن، وهي رواية نقلَها البخاريّ عبر عبيد بن السبَّاق، والزهريّ رائد المنهج الحديثيّ ليستْ متَّسقةً في نسيجِها

الداخليّ؛ لتضارب معلوماتِها في جوانب عدَّة منها مثلًا:

١. متى كانتِ البداية في أن يطلب الخليفة بكتابة القرآن الكريم بحسب رواية زيد الممثِّل الأساس في الرواية؟.

٢. وهناك في الرواية غموض لغويّ؛ إذ قال زيد: «أرسل إليَّ أبو بكر، فقال أهل اليمامة»؛ فهل المقصود أهل اليمامة بمعنى معركة اليمامة، أو بعد وقوع المعركة، أو أهل اليمامة كما سمَّاهم زيد، أو السبَّاق أو الزهري أو حتَّى الخليفة؛ فما المقصود من هذه التَّعبيرات الغامضة؟.

٣. ثمَّ تتَّجه الرواية المقدَّسة هذه عند البخاريّ إلى لغزٍ آخر، وهو بعد «مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده»، لمَ ركَّزتْ هذه الرواية على عمر ابن الخطاب، وهو لم يكن له علاقة، فهل كان يقصد بذلك أنَّه كان دائمًا مرتبطًا تاريخيًّا بأبي بكر، أو أنَّه كان ملازمًا له دائمًا؟ أم أنَّها من قبيل الإعلان، والإعلام؟.

٤. متى تمَّ ذلك؟ ومتى كان اللقاء بين أبي بكر، وعمر وبين حدث أهل اليمامة، أو لنقُلْ معركة اليمامة؟ هل بعد وصول الخبر بيوم، أو بشهر أو ما إلى ذلك؛ لأنَّ هذا- أي الزمن- يعدُّ لبَّ العناصر المكوِّنة للحدث التاريخيّ، وأساسَها كما نفهمُها من أولئك الذين وضعوا لنا قواعدَ منهجِ البحث التاريخيّ.

٥. ما علاقة هذا الأمر بسياسة الدَّولة، وما صار يُعرف خطأً بحُروب، أو معارك الرِّدَّة؟.

٦. وتذهب الرواية إلى أنَّ: «قال أبو بكر: إنَّ عمرَ أتاني؛ فقال: إنَّ القتل استحرَّ يوم اليمامة [سابقًا أهل اليمامة] بقرَّاء القرآن، وإنِّي أخشى أن يستمرَّ القتل بالقرَّاء بالمواطن؛ فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع

القرآن. قلتُ لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خيرٌ».

فالنصُّ هذا مقبولٌ جدًّا عند المحدِّث، ثمَّ صار نصًّا مقبولًا أيضًا عند المؤرِّخين من دون أن يتوقَّفوا، أو يحلِّلوا مبانيه المتضاربة، ومن دون أن يثيروا أيَّما تساؤلٍ؛ فلماذا حدث كلُّ هذا؟، أَلأنَّه حدث بفعل سيطرة أهل الحديث على المؤرِّخين، وتوجيههم التَّاريخَ الذي لا حولَ للمؤرِّخ، ولا قوَّة لهُ على وفق منهجهم، وإلَّا كيف نفهم بأنَّ خليفةَ المسلمينَ، والخليفة الذي جنَّد الجيوشَ ضدَّ من دعاهم بـ(المرتدِّين)، والقائد الذي اعتمد عليه في قتل مالك بن نويرة المسلم، والذي نطقَ بالشَّهادتينِ، كان ينتظر عمر بن الخطَّاب؛ لكي يأتيه بخبر اليمامة، أو خبر أهل اليمامة؛ أَلأنَّ عمرَ كان أعلمَ من الخليفة بخبر الردَّة، وأهل اليمامة؟، فمن ذا الذي سيَّر خالدَ بن الوليد لِما عُرِف خطأً بعمليَّات الردَّة؟، ألم يكن الخليفة نفسُه، والمفروض أنَّه كان يتابع تحرُّكات خالد (سيف الله؟!!)، ثمَّ ما معنى قول عمر بن الخطَّاب: «إنَّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن». فالمؤرّخ له الحقُّ، مثلًا، أن يتساءَل: مَن هم هؤلاء القرَّاء الى جانب سالم مولى حذيفة؟ فبحسبِ الرِّواية أنَّ مجموع من استشهد في ذلك اليوم ثلاثة وثلاثون صحابيًّا، إذ ورد أنَّ هناك في كتاب الغزوات لابن حبيش قائمة بالشهداء الأبطال الذين أبلوا بلاءً حسنًا في محاربة مسيلمة الكذَّاب، وجيوشه، والجدير ذكرُه أنَّ ابن حبيش قد اعتمد اعتمادًا كاملًا تقريبًا على كتاب سيف بن عمر (الفتوح الكبرى، والردَّة) على عكس ما رواهُ الطبريُّ عن هذه المعركة التي اعتمدها على سيف بن عمر أيضًا، ولكنَّه اعتمدَها على طريقَينِ من الرواة، الأوَّل منهُما على السريّ بن يحيى عن طريق شيخِه شعيب بن إبراهيم التَّميميّ الكوفيّ؛ فقد ذكره حوالى عشرين مرَّة في هذه المعركة، لكنَّه لم يذكرِ التفاصيل التي ذكرها ابن حبيش؛ لأنَّ هذا كان يمتلك نسخةً من كتاب سيفٍ نفسِه،

والطـبريّ لم يعتمد الطَّريقَ الآخرَ للوصول إلى كتاب سـيف ألَا وهو طريق عبيد الله بن سـعد الزهريّ، وعمّه يعقوب بن إبراهيم الزهريّ؛ فالقائمة المفصَّلة للأبطال الشـهداء المذكوريـن في كتاب ابن حبيش نقلًا عن كتاب سـيف هم: أبـو حذيفة بن عتبة من بني عبد شمس، وسالم مولى أبي حذيفة، ومخرمة بن شريح، ومن بني أسد شجاع بن وهب، ومن بني أميَّة الحكم بن سـعيد بن العاص، ومن بني أسـد بن عبد العزَّى السـائب بن العـوَّام، ومـن بني عبد الدار يزيد بـن أوس، ومن بني زهرة يغلي بـن جارية، ومن بني مخـزوم الوليد بن عبد شـمس، وحكيم بن أبي وهب، ومن بنـي عَدي بن كعب زيد بن الخطَّـاب، وعبد الله بن عمـرو، وعامر بن البكير، ومن بني سـهمٍ عبد الله بن الحارث، وأبـو قيـس بن الحارث، ومن بني عامر بن لؤي عبد الله بن مخرمة وعبد الله بن سـهيل، ومـن الأنصار ثابت بن قيس بن شـمَّاس، وبشر بن عبد الله، ومن بني عوف عبد الله بن عتبان، وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول، وثابت بن هزال، وإياس بن ودقة، ومن بني سـاعدة أسـيد بن النعمان، وسـعد بن حارثة[1]، يُضاف اليهم كلٌّ من الطفيل بن عمرو الدوسيّ، وأبو دجانة سمَّاك بن خرشة، وسالم مولى أبي حذيفة وأبي حذيفة، وعبد الله بن سهيل ثابت بن قيس بن شماس، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، وعبَّاد بن بشر، والسـائب بن عثمان بن مظعون، والسـائب بن العوَّام، وعبد الله بـن أبي بكر الصدِّيق، ومعن بن عَديّ.

وقد قدَّم لنا الذهبيُّ في كتابه (سِـير أعلام النبلاء) وكتب تراجمَيَّة أُخرى نبذةً مهمَّة عن حياتهم، وعن نشـاطاتهم في المعارك، والغزوات إبَّان عهد رسـول الله ﷺ، كما تقدَّم ذكـرُه في مقدِّمـة هذا الكتاب، كان الصحابيّ سـالم مولى أبي حذيفـة الوحيد بين أولئك الشـهداء مَن تميَّز بكونه من حَفظة القرآن الكريم، ومن أوائل من اعتنق الإسـلام، وفي

(١) ينظر على قول المستشرق شاخت:

J. Schacht, An Introduction to Islamic Law (1964), Supra Note 5, at 15.

حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَى أَرْبَعَةٍ: سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ».

وقيلَ في رواية أخرى «خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»، وفيه قال الخليفة عمر بن الخطَّاب، وهو على فراش الموت: «لو أدركني أحدُ رجلَين، ثمَّ جعلت إليه الأمرَ لوثقتُ به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجرَّاح».

أمَّا زيد بن الخطَّاب؛ فقيل عنه إنَّه لم يتخلَّف عن رسول الله عليه الصَّلاة والسّلام في مشهدٍ، ولا في غزوة، وحضر معه بيعةَ الرضوان بالحديبيَّة، وكان ثابت بن قيس خطيبَ الأنصار، وخطيبَ النبيّ صلى الله عليه وآله، واشتهر أبو دجانة ببطولاتِه في المعارك والغزوات، وكانت له عُصبةٌ حمراءُ يعتصب بها متى اشتدَّت الأمور، وكان الأنصار يسمُّونها (عُصبة الموت).

إنَّ سيرَ حياة هؤلاءِ الصَّحابة الشُّهداء كانت بطوليَّةً في نُصرة الإسلام، وقد شهِد أكثرُهم مغازيَ رسول الله، وقاتلوا ببسالةٍ أعداءَ الإسلام، وقدَّموا أرواحَهم في معركة اليمامة؛ لكنَّهم ما عدا سالمًا مولى أبي حذيفة، لم يكونوا من حَفَظة القرآن الكريم، وقرَّائِه، وهي النُّقطة المهمَّة جدًّا في قولبةِ رواية معركة اليمامة، وفي التَّأسيس للأسباب التي حدَتْ بالخليفة الأوَّل بمؤازرة، وبتأييد من الخليفة الثاني، وبالتَّنسيق مع الصحابيّ زيد بن ثابت؛ فأسباب بناء نظريَّة استشهاد حَفَظة القرآن الكريم، وقرَّائه وفاقًا لذلك باتتْ معرَّضةً للنقد، والتَّفنيد الذاتيّ، فضلًا عن أنَّها ضربةٌ سديدةٌ موجَّهة إلى المستشرقين، والمبشِّرين، وغير المستشرقين من الذين يثيرون الشُّكوكَ دائمًا عن وضعيَّة القرآن الكريم، وعن كونه غير متكاملٍ، وأنَّ سوره وآياتِه غيرُ مرتَّبة، بلهَ غير موجودة أو مكتوبة، والأخطر من هذا، وذاك أنَّ راويةَ هذه الرواية الحديثيَّة قد تجاهل كلّ ذلك

حينما تمَّت الموافقة على اختيار زيد: الرَّجل الشابّ العاقل، غير المتَّهم!! من بين الصحابة، والذي كان كاتب الوحي [المفروض أن يكون زيد عالمًا بما كان الوحي جبريل عليه السلام ينزِّل على الرَّسول من آيات الذِّكر الحكيم أكثر ممَّا كان يعرفه القرَّاء، أو ممَّا يعرفه سالم مثلًا]؛ فما الذي حدث بعد إتمام الاختيار، والتَّنصيب من إجراءات زيد؟ هل ذهب إلى اليمامة قبل أن يستحرَّ القتلُ ببقيَّة القرَّاء؟ هل استند إلى قارىء للقرآن في اليمامة؟ أليس هذه من أولى مهمَّات زيدٍ على حدِّ قول عمر بن الخطَّاب؟ إنَّه لم يتَّخذ أيّ خطوةٍ من قبيل ذلك، فلم يعتمدْ إلَّا على نفسه بوصفه أحدَ كتَّاب الوحي نظير ما قام به الإمام عليّ عليه السلام، وما قام به بالفعل الصَّحابة نظيرعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب باعتمادهم حقًّا على ما في صدورهم من قرآن، وعلى ما كانوا يحفظونه من القرآن الكريم، وهو الطريق الأمثل، والأقوم، والأصوب في أن يكتبوا، أو يجمعوا مصاحفَهم، الأمر الوحيد الذي قام به زيدٌ على إثرِ موافقتِه على هذه المهمَّة العسيرة، وهو يعيش وسط مجتمع المدينة، مدينة الصحابة، وفيها مثل الإمام عليّ عليه السلام، والصَّحابة كتَّاب الوحي الأصليِّين بعد أن راجعَه الخليفةُ، وعمر مرَّات أخرى لممانعته في البداية، ولرفضِه المشروع؛ إذ قال: «حتَّى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما». أي: إنَّ زيدًا كان معارضًا لما أبداه الخليفة، وعمر من عمل شيءٍ لم يفعلْه رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وهو أمرٌ غريبٌ أن يوافق الخليفةُ، وعمر على جمع القرآن، وأن يعترضَ عليهما زيد في الوقت الذي هو نفسه القائل عن نفسه بسندٍ على شرط الشَّيخَينِ «كنَّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله نؤلِّف القرآن من الرِّقاع»، كذلك ألم يكن هو القائل: «لمَّا نسخنا الصحف في المصاحف فُقِدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمعُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقرؤها»، وهذا أيضًا ما أوردهُ صحيح البخاريّ عن رواة الحديث الزهريّ، وخارجة بن زيد بن ثابت.

ولتكن جميعُ المحتويات الذي تضمَّنها هذا النصُّ صحيحةً؛ فأين قراءاتُ القرَّاء

مـن أهل اليمامة؟ إنَّنا لـن نجدَ في صحيح البخاريّ، وغيره ممَّـن اعتمد الرواية الحديثيَّة بصورةٍ مكرورة إلَّا على الآتي: «فتتبَّعت القرآن أجمعه من العسـب واللخاف، والرِّقاع، والأكتـاف، وصـدور الرِّجال»، فهذه المـوارد والمصادر التي اعتمدهـا، والتي لا تغني عـن جوعٍ كانت مواردَ زيدِ بن ثابت في جمـع المصحف؛ إذن فكلُّ محتويات هذه الرواية الحديثيَّـة لم تتحقَّـقْ في خاتمة مطافهـا لا (أهل اليمامة)، ولا (يوم اليمامة)، ولا (اسـتحرَّ القتـل بقرَّاء القـرآن)، ولا أقل من ذلـك، ولا أكثر؟ بالعكس فإنَّ زيـدًا كاتب الوحي افتقَـد، والواقع إنَّه كان ناسـيًا كما يبدو لهـذه الآيات الكريمة، وهـو كاتب الوحي، أنَّ هناك آيةً من الأحزاب، أو قيل آية من سـورة التوبة، أو قيل آيتَين من سورة التوبة؛ فإذا بكاتـب الوحي يبحث عن كلِّ هذه الآيات؛ فلم يجدْهـا إلَّا عند خزيمة الأنصاريّ، أو عنـد والد خُزيمـة الأنصاريّ، لا مع قارىءٍ من قرَّاءِ يـوم اليمامةِ، ولا من قلبه، ولا من صدره؛ لأنَّه كان يكتب لرسولِ الله صلى الله عليه وآله.

والأنكى من كلِّ هذا المسـألة الخاصَّة بالنسـيان الذي وُصِفَ به الصحابيّ زيدٌ بينما في رواية البخاريّ إنَّ رسـول الله حينما نزلت آية ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ في سورة النّساء قـال: «ادعُ لي زيـدا وليجيء باللوح والـدواة والكتف أو اللوح والـدواة»؛ فكأنَّ هذه الحالة كانتْ من عادة رسـول الله، وعلاقته بكتَّـاب الوحي أليس هذا صحيحًا؟ فما بال البخـاريّ يكتـب بابًا مُسـتقلًّا بعُنوان (باب نسـيان القرآن، وهل يقول نسـيت آية كذا وكذا).

والأدهى، والأَمَرُّ إنَّه يأتي برواية عن هشـام بن عروة بن الزُّبير عن عروة بن الزُّبير والده عن عائشة جاء فيها ما يأتي «قالتْ: سمع النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجلًا يقرأ في المسجد؛ فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا، وكذا آية من سورة كذا»! ما معنى هذا القول المنكر؟، ويعقِّبهـا البخاريُّ برواية تدعم هذا الموضوع، والرواية وردتْ عن هشـام بن

عروة أيضًا؛ إذ روى «... وقال- يعني النبيّ ﷺ- أسقطتهنَّ من سورة كذا». (حديث ٥٠٣٧).

وأضافَ في حديثٍ ثالثٍ بالسَّند نفسه: هشام- عروة- عائشة، «قالتْ: سمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رجلًا يقرأ في سورة بالليل؛ فقال: يرحمُه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية كنتُ أُنسيتها من سورة كذا وكذا». (حديث ٥٠٣٨)، ويدعمها برواية رابعة عن وائل عن عبد الله (ربَّما ابن الزبير أو ابن عمر والله أعلم) قال: «قال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأحدهم[1] يقول نسيت آية كيت وكيت؟! بل هو نسي- يعني النبيّ». (حديث ٥٠٣٩).

كلُّ هذا الكلام غير المنضبط يُحكى في الصَّحيح الذي لا يصحُّ بعده أيُّ كتاب إلَّا كتاب الله ﷻ!! متناسيًا آياتِ الله تعالى في سورة الأعلى ٦-٧، التي يقول فيها سبحانَه وتعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

هذا هو مثال واحدٌ نذكرهُ للتَّعبير عن المنهج الحديثيّ في الرواية التي كان لها أثرٌ بارزٌ في التَّدوين التاريخيّ، والتي فرضت على المؤلَّفات التاريخيَّة، لماذا؟ لأنَّ التَّاريخ كان مندمجًا؛ بل وتابعًا للعلوم الشرعيَّة، أو للعلوم العربيَّة، وهناك أدلَّةٌ جدليَّة أُخرى يمكن أن نتحاورَ من خلالها مع نصوصٍ حديثيَّة، وردتْ في صحيح البخاريّ، وفي كُتبٍ أُخرَ نظير قصَّة عكرمة، ومحمَّد بن سيرين بخصوص الخليفة، والإمام عليّ عليه السلام وهو يعتزلُ في بيتِه من أجل جمع المصحفِ معتمدًا على ما في قلبِه، وصدره من علم من دون الاعتماد على العُسب، والرِّقاع، والأكتاف، وغيرها تلك التي كانتْ مصادر زيد وموارده في جمع القرآن.

(1) See: Forte, David F. (1978). Islamic Law; the impact of Joseph Schacht, (PDF), Loyola Los Angeles International and Comparative Law Review, 1:12, Retrieved 19 April 2018.

نخلصُ إلى القولِ إنَّ هناك أمثلةً كثيرةً أُخرى أضحتْ بالنِّسبة لنا، نحن المسلمين، حادثة لا يمكنُنا تجاوزُها أو تفنيدها؛ لكونها قد أصبحتْ في ضمن حالاتِ النَّهي عن التحدُّث بها؛ لقدسيَّتها، على الرَّغم من كونها روايةً، أو حديثًا مزوَّرًا، وضعيفًا، ومُضطربًا؛ بسبب التَّناقُضات التي تحيط به متنًا، وصياغةً، وإسنادًا، وهذا ما حدث بالفعل لرواية معركة اليمامة، ونتائجها، وعلاقتها الوثيقة بعمليَّة جمع القرآن الكريم، لا بل والأخطر أنَّها دخلتْ في معامل التَّخمين، والتَّحليل، والافتراء الذي يتصيَّدُهُ المستشرقون، والمبشِّرون، ويتمعَّنوا في تحليل أعماقه، وأبعاده؛ ليكون مِعْولًا هادِمًا، ومخرِّبًا للتَّاريخ الإسلاميّ، وللحديث الإسلاميّ، ولكلِّ شيءٍ ينمازُ به الدِّينُ الإسلاميّ بجدارةٍ، وإتقان، ولأحدِّثكم بحديثٍ حدثَ الآن في شهر حَزيران من سنة ٢٠١٩م، بما له في الإعلان عن موعدِ الفِطر، وبداية عيد رمضان المبارك الذي صار الاختِلاف في موعده بالضَّبط بين المذاهب الإسلاميَّة، وبين السنَّة والشِّيعة على وجه الخصوص؛ إذ تداخلَتْ في حيثيَّاتها عواملُ السياسة مع هذا المحور، أو مع المحور المضاد، وأصبح الأمر محيِّرًا للعقول، ونحنُ نعاصرُ أضخم ثورة تقنيَّة، وتكنولوجيَّة، وحاسبويَّة، وفلكيَّة.

والحمدُ لله كنتُ معاصرًا، وشاهدًا؛ إذْ بدأتْ أختمُ القرآنَ الكريمَ مع أهل السنَّة من أجل أن أكونَ متأكِّدًا من مسألة رؤية الهلال، هلالَ العيد؛ فوصلنا إلى الجزء الثَّامن والعشرينَ، وهي عند الشِّيعة الجزء السَّابع والعشرين، وكان اليوم الاثنين من شهر حَزيران، وبعد المغرب بحوالي ساعتينِ أُعلن في السعوديَّة العيد السَّعيد، ورؤية الهلال، طبعًا حسبَ تواصُلي مع تلاوة القرآن الكريم بهدف ختمه؛ فإنَّه أمرٌ مستحيلٌ لعدَّة عناصر بدأتْ من أوَّل يومٍ للصَّلاة، لكن الذي أثارَ دهشَتي، وأنا في ليلتها كنتُ أقرأُ رواية معركة اليمامة، وأبعادها في جمع القرآن الكريم شاهدتُ من القناة في السعوديَّة أنَّ رجُلًا نحيفًا، وملتحيًا، لا أعرف إنْ كان مُفتيًا، أو عالمًا، أو مُحدِّثًا، تمامًا كالحالةِ

التي لا نعرف نحن طلبةَ التَّاريخ شيئًا مهمًّا عن رواة أحداث السِّيرة النبويَّة الشَّفاهيَّين، وهو يمسكُ بالميكروفون، ويوجِّه الفتوى الآتية: يا أبناء العراق لقد اتَّصل بي الشيخ، أو العالم!! الصُّميدعيّ، وهو المهيمن على مايسمَّى في العراق الوقف السنِّيّ؛ فقال لي إنَّ شخصًا من أهالي أبي الخصيب في البصرة هوعالم بالحديث [لكن من هو هذا العالم بالحديث وما اسمه وما جنسه، وهل هو نظير سيف بن عمر مثلًا؟ لا ندري والله أعلم] قد رأى الهلال، ولذلك يا مسلمين لقد ثبت أنَّ غدًا الثلاثاء هو يوم العيد؛ فافطروا يرحمكم الله. بحقِّك عندما تقرأ هذا النبأ في يومِنا في القرن الواحد والعشرين، ألَا تشعرُ بأنَّ الذين اتَّبعوا هذه الفتوى بحسب ما جاء به القرآن الكريم في سورة الحجِّ، آية رقم ٤٦، إذْ قالَ عزَّ من قائل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ صدق الله العليُّ العظيم، أبهذا الحديث أنتم تؤفكون؛ فنرى كثيرًا من أهل السنَّة قد أفطروا، وسبحان الله؛ فإذا بأحدهم من الفلكيِّين يعلن عن تكذيبه لما قاله سيف بن عمر! وهو من أهل السنَّة أيضًا؛ فقال: يستحيل جدًّا رؤية الهلال كما ادَّعاه ذلك المجهول الهُويَّة، عالم الحديث، أن يرى الهلال، وأنَّه لا يمكن رؤيته إلَّا في جنوب إفريقيا، فقِسْ على ذلك في الرواية التي هي رواية معركة اليمامة في صحيح البخاريّ؛ فاضطر المهيمن على الوقف السنِّيّ أن يعلن عن ضرورة دفع كفَّارة، التي لا نعلم إن كان قد دفعَها من خزينته هو أم العالم الذي وصف أنَّه من أهل أبي الخصيب البصرة أم العالم الملتحي من السعوديَّة الذي أعلن الفتوى العامَّة على جميع مسلمي العالم؛ وهو ذات الخطأ الذي قد حدث مع الشيعة في سنةٍ من السَّنوات... وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية بوصفها ديمومةً لرواية اليمامة، واستمرارًا للنِّقاش بشأن عمليَّة جمع القرآن الذي يرى المستشرقُ هربرت بيرغ، وهو على حقٍّ تمامًا، سيبقى النِّقاشُ بين المستشرقين فحسب إلى ما لا نهاية.

عودًا على بدءٍ..

والآن، وبعد أن بيَّنَّا ضعفَ الدَّليل، دليل القرَّاء الشُّهداء في معركة اليمامة، نتوجَّه إلى دراسة المستشرق جون برتون البريطانيّ، والمبشِّر جون جلكرايست من جنوب إفريقيا في كتابَيهما الموسومَين (جمع القرآن)؛ فالمستشرقان مبدئيًّا قد أسَّسا جميعَ هيكليَّة كتابيهما، لِما كانا يعتقدانِ به أنَّهما يأتيانِ برأيٍ جديدٍ يُضافُ إلى رأي جون ونزبورو المستشرق الأمريكيّ، أو حتَّى أنَّهما سيضيفان أطروحةً جديدةً عمَّا جاء به قبلهما بكثيرٍ المستشرق الهنغاريّ جولدتسيهر Ignác (Yitzhaq Yehuda) Goldziher المتوفَّى ١٩٢١، والمستشرق الألمانيّ البريطانيّ جوزيف شاخت Joseph Franz Schacht المتوفَّى في سنة ١٩٦٩م، تلك المعتمدة أساسًا على المصاديق المتضاربة، والمتناقضة لرواية معركة اليمامة التي قدمناها توًّا بالتَّفصيل في أعلاهُ، بهدف إبراز ضعف الدَّليل الذي استند عليه منطوقُ تفسيرهؤلاء المستشرقينَ، والمبشِّرين.

بحسب رأي البروفسور شاخت الذي تأثَّر بله الذي كرَّرآراءَهُ المستشرق جون برتون، والمبشِّر جون جلكرايست، فإنَّ تزوير، وتلفيق أحاديث رسول الله محمَّدﷺ قد بدأ منذ حوالي ١٠٠هـ/ ٧٢٠م، ووفاقًا لشاخت؛ فمن الأمثلة على سلطة القانون التقليديَّة؛ فإنَّه كان المتَّبع عليه في ظلِّ الخلافة بشأن عقوبة السَّرقة وهي عقوبة الجلد، على الرّغم من أنَّ القرآن قد نصَّ على أنَّ العقوبة هي القطع التَّشويه/ البتر [إذ جاء في سورة المائدة المباركة في الآية ٣٩ قوله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المترجم عبد الجبَّار ناجي][1].

(1) See: Pre-Islamic Background and the Early Development of Jurisprudence, in 1 Law in the Middle East 28, (M. Khadduri & H. Liebesny Eds., 1955), Supra Note 5, at 43.

ويجادل شاخت على أنَّ تلفيق الأحاديث قد بدأ جزئيًّا بحوالي ١٢٠ هجريَّة من جانب علماء الكوفة، وتبعهم بعد سنوات قليلة علماء المدينة، إذ بدؤوا ينسبون بشكلٍ ملفَّق (معتقداتهم الجديدة إلى الفقهاء السَّابقين)، وبمرور الوقت توسَّعوا في نسبتها تلفيقًا إلى محمَّد[1]. ويُلقي شاخت اللومَ في كلِّ ذلك على الحماس الدينيّ لأولئك الفقهاء الذين كانوا (يكرهون) استعمال القياس، والإجماع؛ وبذلك فإنَّهم زوَّدوا، ووفَّروا التَّسويغات المشبوهة للمحدِّثين الملفِّقين للأحاديث، كمثال على هذا قول إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الأقوال المنسوبة إليَّ والتي تتَّفق مع القرآن فهي تعود إليَّ، سواء قلتها في الواقع أم لم أقلْها، بالرَّغم من كونها مزوَّرةً لم أقلْها» [كذا ورد الحديث عند المستشرق وكذا ترجمته. المترجِم]. الواقع أنَّ هذا الحديث الذي ورد- وهو بحسب المصادر الحديثيَّة حديثٌ ضعيفٌ- وهو: «سيفشو عنِّي؛ فما أتاكم يوافق القرآن؛ فهو عنِّي، وما أتاكم عنِّي يخالف القرآن؛ فهوليس عنِّي»، وهو الذي أخرجه البيهقيّ في معرفة السُّنن والآثار، باب الحجَّة في تثبيت خبر الواحد، وقال البيهقيّ: أشار الشَّافعيُّ إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه دعا اليهودَ فسألهم فحدَّثوه حتَّى كَذَبُوا على عيسى، فصعد المنبر، وخطب، وقال: «إنَّ الحديث سيفشو عني، وما أتاكم يخالف القرآن فليس مني». قال البيهقيّ: خالدٌ مجهول، وأبو جعفر ليس بصحابيّ، فالحديث مُنْقَطِع، فضلًا عن الحديث الآخر عن رسول الله ﷺ: «إذا حدَّثتم عنِّي حديثًا تعرفونه، ولا تنكرونه؛ فصدِّقوا به قلتُه أو لم أقلْه؛ فإنِّي أقول ما تعرفونه ولا تنكرونه، وإذا حدَّثتم عنِّي حديثًا تنكرونه، ولا تعرفونه

(1) Forte, David F. (1978). Islamic Law; the impact of Joseph Schacht (PDF)., Loyola Los Angeles International and Comparative Law Review. 1:12. Retrieved 19 April 2018. and Pre-Islamic Background and the Early Development of Jurisprudence, in 1 Law in the Middle East (M. Khadduri & H. Liebesny Eds. 1955), Supra Note 5, at 43.

فكذبـوا به؛ فإنِّي لا أقـول ما تنكرونه، وأقول ما تعرفونـه». أخرجه الطحاويّ في شرح مشـكل الآثار، باب مشـكل ما رويَ عن رسـول الله، المهمُّ جدًّا أنَّ المسـتشرق شاخت قـد أورد الحديث المذكور للتَّدليل على تحريف الأحاديث جميعها؛ ولكنْ هذان الحديثان قـد ضعَّفهما علماءُ الجـرح والتعديـل، وأوردوا أنَّها أحاديث شـديدة الضَّعف، وواهية الإسـناد، ومنكرة المتن؛ فالأوَّل رويَ من طرقٍ كلُّهـا ضعيفة عن أبي هريرة وابن عمر، وثوبـان، وهنالـك أيضًا حديث وردَ عن رسـول الله ﷺ أُخرج من طريـق عبد الرَّحمن ابن سـلمان بن عمـرو مولى المطَّلب عـن أبي الحويرث عن محمَّد بن جبـير بن مطعم أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «ما حدَّثتـم عنِّي ممَّا تعرفون فصدِّقوا ومـا حدَّثتم عنِّي ممَّا تنكرون فـلا تصدِّقوا فإنِّي لا أقـول المنكر وليس منِّي»، وأورد البيهقي حديثًـا ثالثًا: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ، قَالَ الشَّافِعِيُّ قَالَ لِي قَائِلٌ: اذْكُـرِ الْحُجَّةَ فِي تَثْبِيتِ خَـبَرِ الْوَاحِدِ بِنَصِّ خَبَرٍ أَوْ فِيهِ إِجْمَاعٍ، قُلْتُ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَبْدِ الْـمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْـعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، قَالَ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَـمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا فَرُبَّ حَامِـلِ فِقْـهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَـهُ مِنْهُ، ثَلاثٌ لا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ: قَلْبُ مُسْـلِمٌ، إِخْلاصُ الْعَمَلِ لِلهِ وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْـلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ فَـإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَـنْ وَرَائِهِمْ»، وللبيهقيّ في هذا المجال حديث آخر هو: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، فِي آخَرِينَ، قَالُـوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الشَّـافِعِيُّ رحمه الله، قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمٌ أَبُو النَّضْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ، يُخْبِرُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيـهِ الأَمْـرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ». قَالَ سُـفْيَانُ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ الْـمُنْكَدِرِ مُرْسَـلًا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ،

حديث رقم ٥، وفي الحديث رقم ٦ ذكر البيهقيّ: «خْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهَّ، وَأَبُو سَعِيدِ بْنُ أَبِي عَمْرٍو، فِي كِتَابِ السِّيَرِ، قَالا: أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ، قَالَ: قَالَ أَبُو يُوسُفَ: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ أَبِي كَرِيمَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ دَعَا الْيَهُودَ فَسَأَلَهُمْ فَحَدَّثُوهُ حَتَّى كَذَبُوا عَلَى عِيسَى عليه السلام، فَصَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْحَدِيثَ سَيَفْشُو عَنِّي فَمَا أَتَاكُمْ عَنِّي يُوَافِقُ الْقُرْآنَ فَهُوَ عَنِّي وَمَا أَتَاكُمْ عَنِّي يُخَالِفُ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ عَنِّي». قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَيْسَ يُخَالِفُ الْحَدِيثُ الْقُرْآنَ، وَلَكِنَّ حَدِيثَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ مَعْنَى مَا أَرَادَ خَاصًّا وَعَامًّا وَنَاسِخًا وَمَنْسُوخًا، ثُمَّ يُلْزِمُ النَّاسَ مَا سَنَّ بِفَرْضِ اللهِ، فَمَنْ قَبِلَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَنِ اللهِ قَبِلَ، قَالَ أَحْمَدُ: هَذِهِ الرِّوَايَةُ مُنْقَطِعَةٌ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِ الرِّسَالَةِ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِالْمَجْهُولِ خَالِدِ بْنِ أَبِي كَرِيمَةَ، فلَمْ يُعْرَفْ مِنْ حَالِهِ مَا يَثْبُتُ بِهِ خَبَرُهُ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ أَوْجُهٍ أُخَرَ كُلِّهَا ضَعِيفٌ، قَدْ بَيَّنْتُ ضَعْفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي كِتَابِ الْمَدْخَلِ».حديث رقم ٦، وفي حديث رقم ٧ قال البيهقيّ: «أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ أَبِي عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ بِإِسْنَادٍ، عَنْ طَاوُسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لا يُمْسِكَنَّ النَّاسُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ، فَإِنِّي لا أُحِلُّ لَهُمْ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ، وَلا أُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا لا حَرَّمَ اللهُ». قَالَ الشَّافِعِيُّ: هَذَا مُنْقَطِعٌ وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَفَرَضَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنْ هَذَا إِلَّا مَا تَمَسَّكُوا بِهِ عَنِ اللهِ، ثُمَّ عَنْ رَسُولِهِ، ثُمَّ عَنْ دَلالَتِهِ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ إِنْ كَانَ قَالَهُ: لا يُمْسِكَنَّ النَّاسُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا كَانَ بِمَوْضِعِ الْقُدْوَةِ فَقَدْ كَانَتْ لَهُ خَوَاصُّ أُبِيحَ لَهُ مَا لَمْ يُبَحْ لِلنَّاسِ، وَحُرِّمَ عَلَيْهِ فِيهَا مَا لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «لا يُمْسِكَنَّ النَّاسُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِنَ الَّذِي لِي

أَوْ عَـلَيَّ دُونَهُمْ»، قَالَ الشَّـافِعِيُّ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: «فَإِنِّي لا أُحِلُّ لَهُـمْ إِلا مَا أَحَلَّ اللهُ وَلا أُحَرِّمُ إِلا مَا حَرَّمَ اللهُ»؛ فَكَذَلِكَ صَنَعَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ وَافْتَرَضَ عَلَيْـهِ أَنْ يَتَّبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَنَشْـهَدُ أَنْ قَدِ اتَّبَعَهُ، فَـمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَحْيٌ فَقَدْ فَرَضَ اللهُ فِي الْوَحْـيِ اتِّبَاعَ سُـنَّتِهِ، فَمَنْ قَبِلَ عَنْهُ فَإِنَّـمَا قَبِلَ بِفَرْضِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَبَـارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ سـورة الحـشر آية ٧. قـال البيهقيّ: وهذا حديث منقطع. [ينظر: معرفة السـنن والآثار (السـنن الوسـطى) لأحمد بن الحسين بن عـليّ البيهقيّ أبو بكر، (المحقِّـق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار الوعي- حلب، سنة النشر ١٤١٢-١٩٩١، أحاديث رقم ٤، ٥، ٦، ٧ المترجم عبد الجبَّار ناجي][1].

جون برتون وكتابه (جمع القرآن وإقراره)

عجبًا لبعضِ الباحثينَ العربِ، والمسلمين عندما يؤشِّرون أحيانًا إلى رأيهم في كتاب جون برتون يقولون: «ذكر المسـتشرق الشَّـهير جون برتون في اسـتنتاجات كتابه (جمع القرآن) ما لدينا اليوم بين أيدينا من قرآن إنَّما هو مصحف محمَّد»[2].

وهـو رأي خاطـئ تمامًا؛ لأنَّ برتون يهدف من تفسـيرِه هـذا إلى أنَّ القرآن الكريم هـو من كتابةِ رسـول اللهﷺ (حاشـاه الله)، غير أنَّ مشـكلة هؤلاءِ الباحثـين العرب، والمسلمين هو عدم فهمهم، وعدم إدراكهم نظريَّة المؤامرة في قول المستشرق برتون هذا إنَّـه أيُّها الأعزَّاء يقصد أنَّ الذي كتب المصحفَ هو النبيُّﷺ (حاشـاه الله)، فهو في رأيه لم يكن كما نؤمن نحن المسلمين تنزيلٌ من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي، والملك

(١) أخرجه أحمد بن الحسـين بن عليّ البيهقي في معرفة السـنن والآثار (السـنن الوسطى)، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر دار الوعي، حلب، ١٤١٢-١٩٩١، باب الحجَّة في تثبيت خبر الواحد، رقم الحديث ٤: ١/ ٩، وأخرجه ابن المقرئ في معجمه: ٣/ ٢٣٩.

(٢) ينظر بالإنكليزيَّة (جمع القرآن) المطبوع في سنة ١٩٧٩، مطبعة جامعة كامبريدج: ٢٣٩-٢٤٠.

جبرئيل عليه السلام، وهذا هو الخطأ الأساس الذي يرتكبه كثيرٌ من المسلمين عندما يقتبسون المعلومات من كتاب جون برتون؛ فما لدينا، وما بين أيدينا من كتاب إنْ هو في رأي جون برتون ما تمَّ تحريرُه، وكتابته من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، تمامًا كما نطق به كتابُ الله الكريم في سورة العنكبوت آيات ٤٨-٥١ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٨﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومعْنى هذه الآيات بما فسَّرهُ الطباطبائيّ في الميزان: ما كان من عادتك قبلَ نزول القرآن أن تقرأ كتابًا، ولا كان من عادتك أن تخطَّ كتابًا، وتكتبه- أي ما كنت تحسن القراءة، والكتابة لكونك أميًّا- ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحقَّ بدعوى أنَّه باطلٌ، لكن لـمَّا لمْ تحسنِ القراءةَ، والكتابةَ، واستمرت على ذلك، وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم، ومعاشرتك معهم لم يبقَ محلٌّ ريب لهم في أمر القرآن النَّازل إليك أنَّه كلامُ الله تعالى، وليس تلفيقًا لفَّقته من كتب السابقين، ونقلته من أقاصيصهم، وغيرهم حتَّى يرتاب المبطلون، ويعتذروا به، قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾، ويستفاد من الآية السابقة كأنَّه لما نُفيتْ عنه صلى الله عليه وآله التِّلاوةُ، والخطُّ معًا تحصَّل من ذلك أنَّ القرآن ليس بكتابٍ مؤلَّف مخطوط؛ فأضربَ عن هذا المقدَّر بقوله: ﴿ بَلْ هُوَ- أي القرآن- آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، لما ذكرَ الكتابَ، وأمر النبيَّ صلى الله عليه وآله أن يتلوه، ويدعوهم إليه به، وأنَّ منهم من يؤمن به، ومنهُم من لا يؤمن به، وهم

الكافرون الظالمون، أشـارَ في هذه الآية، والآيتَين بعدَها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبـوَّة، واقتراحهم على النبيّ ﷺ أن يأتيهم بآياتٍ غـيره، والجواب عنه؛ فقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ ﴾، وهـو اقتراحٌ منهُم بـأنْ يأتيَهم بآيات غير القـرآن تعريضًا منهـم أنَّه ليس بآيةٍ، وزعـمًا منهم أنَّ النبيَّ يجب أن يكـون ذا قوَّة إلهيَّة، غيبيَّة يقْوى بها على كلِّ ما يريد، وفي قولهم: ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ﴾، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات بوصفها نوعًا من السـخريَّة كقولهم: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ سورة الحجر، الآيات ٦-٩[1].

البروفسور جون برتون مستشرقٌ بريطانيٌّ في جامعة أدنبرة، وله مصنَّفات عدَّة، منها: مقدِّمة للحديث، وجهات نظر عامَّة، المطبوع في مطبعة جامعة أدنبرة في سنة ١٩٩٤م:

An Introduction to the Hadith, Islamic Surveys, Edinburgh University Press, 1994.

ولهُ أيضًا: مصادر الفقه الإسلاميّ، نظرية الإسلام للنسخ

The Sources of Islamic Law: Islamic Theories of Abrogation.

المحور الأساس لأطروحة برتون

يعتقـدُ الباحث القرآنيّ البريطانيّ جون برتـون أنَّ القرآن الموجودَ قد نُظِّم، ومن ثمَّ اعتُمدَ عليه من قبل نبيّ الإسـلام نفسـه، وأنَّ دورَ نبيّ الإسلام في جمع القرآن، وإعلانه

(١) ينظـر: الطبرسـيّ، أبو عليّ الفضل بن الحسـن، مجمع البيان في تفسـير القـرآن، دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م: ٨/ ؟؟؟؟؟؟، الطباطبائيّ، محمَّد حسـين، الميزان في تفسير القرآن: ١٦/ ١٣٨-١٤٠. وهذا التفسـير بحق يعدُّ خير تصوير لافتراء المستشرقَيْن جون بيرتون وجون جلكرايست، وكذلك خير ردٍّ على ادِّعاءاتهم

قد أُلغي لصالح مفهوم النَّسخ، وأنَّ أنواع النَّسخ في كلٍّ من الصِّياغة، والحكم، والنَّسخ في الصِّياغة، ولكن من دون الحُكم، هي أمورٌ قد لفَّقها الفقهاء المسلمون محاولةً منهم إلى أن يؤسِّسوا قاعدةً لقراراتهم الفقهيَّة معتمدين على القرآن، على الرّغم من أنَّ النصَّ القرآنيَّ يفتقر، بل يخلو من أيَّة إشارة إلى مثل هذه القرارات، فإن كان نبيّ الإسلام قد قام في الواقع بتأليفه، ومراجعته، وإعلانه كوثيقة هو القرآن؛ فإنَّه لم يعدْ بإمكان الفقهاء التحدُّث عن هذه الحذوفات، أو النسوخات في نصوص القرآن الموجود بين أيدينا؛ فكان حلُّهم الأساس قائمًا على تزييف الأحاديث من أجل استبعاد، وإقصاء نبيّ الإسلام من تاريخ جمع النصِّ القرآنيّ؛ فعلَّقوا عمليَّة هذا الجمع إلى مدَّة ما بعد وفاته. إنَّ معالجة جون برتون للعلاقة بين النَّسخ، وبين جمع القرآن تدلُّ دلالةً واضحةً على دقَّة أبحاثِه في المصادر القرآنيَّة، والإسلاميَّة، ولكن بحسب توجُّهه المسيءِ، والسلبيّ، وعلى أساس كتابه؛ فإنَّ الأحاديث، والرِّوايات التي تتعامل مع جمع القرآن إنْ هي سوى روايات قد نمَتْ، وتطوَّرت في القرن الثَّالث للهجرة، وهناك أمرٌ واحدٌ لم يفكِّرْ فيه المستشرق برتون، ولم يأخذْه في الحسبانِ، وهو فيما إذا كان الدَّليل التاريخيّ يؤكِّد تصوُّره لتطوُّر هذه الروايات، والأحاديث[1].

وممَّا يلاحَظ أنَّ جون برتون في رأيه المساق في أعلاهُ هو نسخة مكرورة لما فرضه المستشرق الهنغاريّ إغناص جولدتسيهر Goldziher؛ ففي عام ١٨٩٠، نشر كتابه المشهور باللغة الألمانيَّة الموسوم (Muhammedanische Studien) والذي تُرجم بعنوان (دراسات محمَّديَّة)، وبيَّن فيه كيف عكس الحديث النبويّ الخلافات الشَّرعيَّة،

(1) John Burton, An Introduction to the Hadith, Islamic Surveys (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1994, P. 66, The Sources of Islamic Law: Islamic Theories of Abrogation: Examination of the View of John Burton Concerning the Relationship between Abrogation and Collection of the Qur'ān

والعقائديَّة في القرنَين الذينِ أعقبا وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بدلًا من أن يعكس كلام النبيّ نفسه، وجولدتسيهر بشكلٍ عام، يؤكِّد بأنَّ الأحاديث ليستْ أكثر من إنتاج لتطوُّر الأبعاد الدينيَّة، والتاريخيَّة والاجتماعيَّة للإسلام خلال القرنَين الأوَّلَين، وفي هذا الصَّدد؛ فإنَّ رأيه كان ضدًّا من رأي المستشرق دُوزي، الذي كان يثق في الجزء الأكبر من الأحاديث. يقول جولدتسيهر: «نحن غير مرجِّحين كدوزي فيما يتعلَّق بجزء كبير من الأحاديث، ولكن ربَّما سننظر إلى حدٍّ بعيد في الجزء الأكبر من الأحاديث، فهو يعتقد بالرأي القائل بأن تلفيق الأحاديث بدأ بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأنَّ أوَّل من افتعل، ولفَّق الأحاديث هم الصَّحابة أنفسُهم، كما يتَّضح من بيانه، فأتباع النبيّ المتديِّنون هم الذين عنوا بالأحاديث النبويَّة، وهم الذين كرَّروا أقوالَه صلى الله عليه وآله، سواء في القطَّاعين العامِّ، والخاصِّ منهما، وكذلك في ما يتعلَّق بممارسة الواجبات الدينيَّة، والاجتماعيَّة، والسلوكيَّة؛ فقد أعقب وفاته صلى الله عليه وآله من توسُّع سريع في الفتوحات أدَّتْ بالصحابة إلى يقطنُوا بلدانًا بعيدةً، وهنا، أي في البلدان المفتوحة أخذُوا يحدِّثون بالأحاديث النبويَّة للنَّاس شفاهيًّا، وبعد موتهم؛ فإنَّ كثيرًا جدًّا من هذه الأقوال الشِّفاهيَّة قد دوِّنتْ، ولُفِّقت»[1].

وأعقب المستشرق جولدتسيهر المستشرق الألمانيّ شاخت الذي توسَّع أكثر ممَّا جاء في أطروحة جولدتسيهر بما له علاقة بالأحاديث، وذلك في كتابه المشهور (أصول الفقه المحمَّديّ The Origins of Muhammadan Jurisprudence) المطبوع في سنة ١٩٥٠م، وفي دراسته الأخرى (مدخل للشريعة الإسلاميَّة An Introduction to Islamic Law) المطبوع في سنة ١٩٦٤م، وقد ادَّعى فيهما إلى أنَّ معظم الروايات الحديثيَّة إنَّما قد أنتجتْ بعد سنة ١٠٠ هجريَّة، ومع ما في نظريَّة شاخت من أهميَّة في مجال الشكِّ في الأحاديث النبويَّة، وفي الروايات الإسلاميَّة المتعلِّقة

(1) Goldziher, Vol. 2, p. 19. Muslim Studies,1971.

بجمع القرآن الكريم؛ فإنَّ أطروحته قد لاقت ترحيبًا من بعض المستشرقين، ومن بينهم (جـون ونزبورو)، و(جون برتـون)، و(المبشِّر جـون جلكرايسـت)، لكنَّها في الوقت نفسِـه تعرَّضت إلى انتقاداتٍ بالغة الأهميَّة من عددٍ من العلماء المسـلمين نظير مصطفى الأعظميّ في دراسـته (حول كتاب شـاخت أصول الفقه الإسلامي)، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٩٨٥.

Al-A'Zamī, M. Mustafā. (1985), On Schacht's Origins of Muhammadan Jurisprudence. Riyadh: King Saud University.

وكذلك العالم وائل حلَّاق بخصوص (مصداقية حديث النبيّ: إشكالية زائفة)

Hallaq, Wael B. (1999). The Authenticity of Prophetic Hadîth: A Pseudo-Problem. Studia Islamica. No. 89: 77–84.

ويجـادل فيهـا وائل حلَّاق بأنَّ شـاخت قدِ افترض خطـأً أنَّ علماء المسـلمين في العصر الوسـيط قد عدُّوا أنَّ هذا صحيح بشـكل غير منطقي، ووفقًا لحلَّاق؛ فمن الأرجح أن يكـون الأمـر- وهو أمر واضح للقـارئ المتأنِّي عند فحص الأدبيَّات الإسـلاميَّة- على الأقـل، وبما يتعلَّق الأمر بمسـائل القانـون، والشَّريعـة؛ فالعلماء المسـلمون في العصر الوسـيط يَعدُّون غالبيَّـة الحديث صحيحة عـلى الأرجح، ويبـدو أنَّ ردَّ الفعل العلميّ الإسـلاميّ، والغـربيّ على أعمال شـاخت قد توزَّعت عـلى ثلاثة اتِّجاهات مـن العلماء، فاعتمادًا على رأي الأسـتاذ حلَّاق في بحث الأستاذ محسن هادي في بحثه المنشور في سنة ٢٠٠١ الموسوم (نقد النصّ الحديثيّ: إعادة نظر)

Haredy, Mohsen (2001). Hadith Textual Criticism: A Reconsideration. Islam Online Archive. Retrieved 4 May 2018.

فإنَّ الصنفَ الأوَّل يتمثَّل في المستشرقين جون ونزبورو John Wansbrough ومايكل كوك Michael Cook اللَّذين كانا يسـعيانِ إلى (إعادة تأكيد استنتاجات شاخت)، وفي

بعض الأحيان إلى تجاوزها إلى أبعد من مغزاها.

والصنف الثاني من العلماء الذين سعوا إلى دحض آراء الاتِّجاه الأوَّل نظير نبيهة عبود Nabia Abbott، وفؤات سيزين، ومصطفى الأعظميّ، وجريجور شويلر، ويوهان فوك.

والصنف الثَّالث الذي يحاول الوصول إلى موقف الوسط، ومن بينهم هيرالد متزكي، وسانتيلانا، وجي إتش جونبول وجيمس روبسون[1].

العلاقة بين النَّسخ وجمع القرآن في رأي برتون

البروفسور برتون قد كرَّر- كما أشرنا في أعلاه- آراء كلٍّ من جولدتسيهر، وشاخت، والأمثلة التي اعتمدها شاخت في مسائل كالرِّضاعة، والرَّجم، لكن الفكرة الأكثر أهميَّة لجون برتون في ما يتعلَّق بجمع القرآن هي أنَّ القرآن الذي هو موجود حاليًّا بين أيدينا قد نظِّم من قبل نبيّ الإسلام (برتون، ١٩٧٧، ص٢٣١-٢٤٠)، ووفقًا لبرتون أنَّ الروايات التي تؤشِّر على أنَّ القرآن قد جُمِعَ بعد وفاة نبيّ الإسلام قد زَيَّفَها بعض الفقهاء المسلمين، والفقهاء هم الذين استعملوا فكرة النَّسخ من أجل إجازة، أو إقرار بعض القرارات، أو الأحكام القضائيَّة، والشَّرعيَّة التي لم تكُنْ موجودةً، أو مذكورةً في القرآن الكريم، أو التي لا يمكن تواجدُها في القرآن الحالي، وهذه العمليَّة قد أنتجتْ بحدِّ ذاتها الفكرة بأن يستبعد دور النبيّ من عمليَّة جمع القرآن؛ ولذلك تعيَّن أن يرجأَ تاريخ الجمع إلى ما بعد وفاة النبيّ ﷺ، وهكذا يرى برتون أنَّ النَّسخ هو السَّببُ الرئيسُ من وراء التَّلفيق في الأحاديث، والروايات[2].

(1) See: Wael B. Hallaq, The Authenticity of Prophetic Hadith: A Pseudo-problem, in Studia Islamica, 89, (1999), p. 76.

(٢) ينظر: برتون، ١٩٧٧: ١٨-١٩، ١٣٤، ١٦٠-١٦٦، ١٧٤-١٨٧، ١٩٧-١٩٩

وبحسب رأيه أنَّ معظم المدارس الفقهيَّة الإسلاميَّة تعتقد بكون عقوبة الزِّنا في ظلِّ ظروفٍ محدَّدة هي الرَّجم، ومع ذلك، فمن المعروف أنَّ هذه العقوبة ليستْ واضحة في القرآن المتوافر بين أيدينا، ولكنَّها بالأحرى تتناقض بشكلٍ كاملٍ معها كما هو مبين في الآية ١٥ من سورة النِّساء التي تتعلَّق بالزِّنا [ويقصد المستشرق بيرتون الآية الكريمة آية ١٥ من سورة النساء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، المترجم عبد الجبَّار ناجي]؛ فالآية الكريمة تصرِّح أنَّ عقوبة الزِّنا هو السجن مدى الحياة. (ينظر: برتون، جمع القرآن، ١٩٧٧: ٧٢).

ومن الجانب الآخر، فقد كان الرَّجمُ تقليدًا في عهد نبيّ الإسلام (برتون، ١٩٧٧: ٧١-٨٦، ٨٩-٩١)، وهكذا فنحن نواجه شكلَينِ مُتناقضَينِ من العقاب بخصوص الزِّنا، إحداهما على وفق ما جاء به القرآن، والآخر بحسب ما ورد في الحديث، وأنَّ بعض الفقهاء المسلمين يعتقدون بأنَّ الحديث نَسخَ القُرآنَ في هذه الحالة[1] أي: نوع النَّسخ في كلٍّ من التِّلاوة، والحكم.

النَّسخ في التلاوة دُون الحكم.

وعلى هذا الأساس؛ فقد رتَّب المستشرق برتون كتابَه عن جمع القرآن الكريم بحسب الفصول الآتية ذكرها بعد ترجمتها إلى اللغة العربيَّة:

القسمُ الأوَّلُ

المقدّمة:

*** العلوم الفقهيَّة الإسلاميَّة.**

*** العلوم الفرعيَّة للنَّسخ.**

(١) ينظر: برتون، ١٩٧٧: ٩٠-٩١، ١٠٦.

نسخ الحكم والتِّلاوة.

نسخ الحكم دون التِّلاوة:

١. الخلفيَّة لظهور النَّمط، أو الوضع الثَّالث من النّسخ.

٢. التَّفاسير.

٣. الفقه عقوبة الزِّنا.

٤. المثال الثاني للنَّمط أو للوضع الثالث من النَّسخ.

٥. المصحف: التَّدوين غير الكامل للقرآن.

القسمُ الثاني

تاريخ جمع النُّصوص القرآنيَّة:

١. الجمع الأوَّل.

٢. جمع عثمان.

٣. عمليَّات جمع القرآن: مراجعة.

٤. إسناد القرآن: تواتر المصحف.

٥. استنتاجات عامَّة.

فكتاب (جمع القرآن) لجون برتون قد نُشِرَ في عام ١٩٧٧م بواسطة مطبعة جامعة كمبردج، وكلُّ ما فعله برتون هو أنَّه أخذ بنظريَّة جولد تسيهر، وشاخت بشأن عدم صدقيَّة الحديث، وطبَّقها على تاريخ جمع القرآن الكريم، كما ذكرنا آنفًا؛ إذ ادَّعى شاخت (وقبله جولدتسيهر)، ومن بعدهما شاعتْ أطروحتهما القائلة: إنَّ جميع أدب الحديث مزيَّفٌ، وملفَّق من قبل علماء القرن الثَّاني، والثَّالث للهجرة؛ وإنْ هي سوى اختراعات اخترعتْها أقلامُ الأجيال اللاحقة، وهذا الأمر قد قادَ هؤلاء الفقهاء إلى تطوير مفهوم النصِّ القرآنيّ، واختراع (آيات) تمَّ إهمالها، تلك التي تتناول المواقف الفقهيَّة التي أرادوا

إثباتهـا؛ ولأنَّ النّبيَّ ﷺ لم يكنْ بوسـعِه أن يجمعَ القرآنَ؛ فصارَ لا بـدَّ أن يقومَ الصَّحابةُ بهـذه العمليَّـة، وهذا ما يفسِّر لنا الـسَّرد (المزوَّر) في ما يتعلَّق بتاريـخ جمع القرآن، لكن هناك نقطة مهمَّة تجاهلها برتون تمامًا، وهي أنَّ النبي كان أميًّا[1].

إذن مسـألة جمع القرآن الكريم كانتْ، وما زالت بالنِّسـبة إلى الدِّراسات التَّاريخيَّة، والقرآنيَّة العربيَّة، والإسـلاميَّة ميدانًـا جديدًا؛ إذ لم تثرِ الاهتمام الذي تسـتحقُّه بالفعل كما فعلتْ بالنِّسـبة إلى إثارة الاهتمام الغربيّ بهذه المسـألة، شأنها شـأن الميادين الأُخرى، التَّاريخيَّـة والحضاريَّـة التـي لم تنَلْ حقَّها في دراسـة، وتتبُّـع العلـماء، والباحثِين العرب والمسـلمين، وليـس هنالـك ثمَّة تسـويغ مـن جانبنا لهـذه الظاهـرة العلميَّـة!. ولكن الموضوع الآن قد أضحى مسـألة حيويَّـة، وفعَّالة؛ لكونه يتعلَّق بتاريخنـا، وديننا وإرثنا العزيز علينا، فما السَّـببُ يا تُرى في مثل عدم الاكـتراث هذا؟ ألِأنَّ العلماء وأعني علماء الأمَّـة العربيَّة والإسـلاميَّة طبعًا، لم يجدوا ضرورةً حتميَّة في دراسـة مثـل هذا التُّراث؛ لعـدم وجود أيَّة تحدِّيات علميَّة إزاءَهُ، وأقصد تحدِّيات تتحدَّى وجودَهُ العلميّ؟ بمعنى وضـوح رؤاه، وإطر هيكليَّته العامَّة، وذلك لأنَّ مناهج دراسـاتنا لطلبتنا منذُ الدِّراسـة الابتدائيَّـة؛ فصاعـدًا تكاد تخلو مـن أيَّة إثارة بخصوص جدليَّة الجمـع؛ أي جمع القرآن الكريـم، وقـدِ اكتفت بمعالجـة الموضوع مـن زاوية أهمِّ إنجـازات الخليفة الرَّاشـديّ الثَّالث!، وتعدَّى الأمـرُ أيضًا إلى أنَّ مؤلَّفات باحثينا، وعلمائنا هي الأخرى قد انصرف همُّهـا التاريخيّ إلى شـؤون السياسـة العربيَّة، والإسـلاميَّة بخاصَّة مع ظهـور تطوُّرات الاسـتعمار الأوربيّ، وآثاره السياسـيَّة، والاقتصاديَّة السِّلبيَّة على بلدان الشرق الأوسط منذُ عصر الاستكشـافات في مطلع القرن السَّادس عشر فصاعدًا؛ وقد ترجع كذلك إلى

(1) S. Humphreys, Op. Cit., p. 83. R.S. Humphreys, Islamic History. A Framework for Inquiry. Princeton 1991, p. 83. 27J. Schacht, The Origins of Muhammadan Jurisprudence. Oxford 1950, pp. 4-5.

تأخُّر الحركة العلميَّة، وحركة الأساليب البحثيَّة الجديدة من طباعة إلى تحفيزات علميَّة من الجامعات، والمؤسَّسات العلميَّة التي لم يمضِ على تأسيسها زمنٌ طويلٌ، المتمثِّل في عدم تشجيع سياسات الدُّول العربيَّة، والإسلاميَّة وحثّها الباحثين، والطلبة على طلب العلم، والرِّحلة في طلبه، ومواصلة الدِّراسات العُليا، والبحث العلميّ الجادِّ، وإلى غير ذلك من تطوُّرات علميَّة سبقتْنا فيها أوربا في عصر النَّهضة الأوربيَّة، وما بعدها حتَّى زمانِنا هذا.

فموضوعُ جمع القرآن الكريم يقَعُ بالفعل في ضمنِ هذا المنظور العلميّ، والسياسيّ، والفكريّ؛ فالعلماءُ، والباحثون العرب، والمسلمون لم يهتمُّوا بدراسة مثل هذا الموضوع كاهْتمامِهم بكيفيَّة توعية العقول من أجل التحرُّر، والانعتاق من ربقة الاستعمار الحديث الذي كان جاثمًا على صدور المفكِّرين، ومهيمنًا على مشاعرِهم، وأفكارهم منذُ انطلاقة الأفكار والنظريَّات القوميَّة العربيَّة، والفارسيَّة، والتركيَّة، وغيرها، فضلًا عن ذلك فقد كانتِ المجتمعاتُ العربيَّة، والإسلاميَّة، الشعبيَّة طبعًا، تعيش حياةً متدنِّيةً في مستوياتها المعاشيَّة لحساب الطَّبقات الحاكمة المتخمة من الشَّبع، وفي عالمنا الذي سيطرتْ فيه القوى الاستعماريَّة من جهة، والقوى الوطنيَّة والمحلِّيَّة من حكَّام كانوا غارقين في ملذَّاتهم من جهةٍ ثانية، أولئك الذين ورثوا تلك العادات السيِّئة، والضارَّة للمجتمع العربيّ الإسلاميّ من السَّابقين من الحكَّام الأمويِّينَ، والعبَّاسيِّينَ، والعُثمانيِّينَ؛ فصارتْ نمطًا متميِّزًا لحياتهم، وترفهم، وترف حاشيتهم، وبلاطاتهم، ونُدمائهم، وهلمَّ جرًّا، بينما كان النَّاسُ وهم يمثِّلون الغالبيَّة العُظمى يعيشون حياة ذليلةً، ومُستهلكةً دونَ خطِّ الفقر، حياةً متأخِّرةً، وجاهلةً، لا يفكِّرون بشيء سوى اللجوء إلى الله تعالى، والدِّين الحنيف للنَّجاة من أعباء الحياة، وضغوطها تمامًا كالحالةِ في يومِنا هذا حين انصرف الحكَّام المستبدُّون إلى نهب ثرواتِ شعوبِهم، والانشغال في الملذَّات بما صار

موظفةَ العصر، ونظام حياتِهم وهو يُعرف بالفساد الاجتماعيّ ومواليهم وبطاناتهم، وهكذا توجَّه النَّاسُ اليوم مرَّةً أُخرى فلجؤوا إلى الله تعالى، وإلى الدِّين الخالص لا الدِّين السياسيّ الذي يلبسهُ الحكَّام الأبالسةُ بعباءاتهم المتدنِّسة بالشرَّانيَّة، والبغضاء، والكراهِية للإسلام، وتعاليمه وطقوسه.

أقولُ هذا تعقيبًا على فكرة ابتعاد النَّاسِ عنِ التَّفكير بمسألة جمع القرآن الكريم، أو تاريخ القرآن، وكيفيَّة جمعه وتوحيده في قرآنٍ واحدٍ موحَّد، في زمن أخذ الأجانب من المبشِّرين، وغير المبشِّرين الغربيِّين، وحفناتٌ من العرب يتجرَّؤون في كتاباتهم، ومواقفهم ضدًّا بالقرآن الكريم؛ فالنَّاسُ يستمعون يوميًّا إلى أصوات القرَّاء المعروفينَ، وهم يقرؤون القرآنَ دائمًا؛ فلماذا إذن يهتمُّوا في حينها بكيفيَّة تدوينِه، أو جمعِه، أو في الأحاديث، والروايات الخاصَّة بجمعِه، وتدوينِه؟، لاسيَّما وإنَّ الفردَ ربَّما كان مطَّلعًا على المرويَّات التاريخيَّة التي وردتْ خطأً بصيغة أحاديث نبويَّة، وهي بالأحرى مرويَّات قد رُويت عن صحابةِ رسول الله ﷺ المتواجدة في كتب، ومؤلَّفات الصِّحاح، والسُّنن، وفي مؤلَّفات المصاحف، والمؤلَّفات التَّاريخيَّة، والرِّجاليَّة، والتراجميَّة، ومؤلَّفات الجُرح والتَّعديل، وبقيتِ الحالُ كذلك إلى أن وعى العقلُ المسلمُ على أثر التحدِّيات الغربيَّة المفاجِئة، والمباشَرة، وغير المباشَرة.

فبينما كان العقلُ المسلمُ مستسلِمًا للسُّبات الكهفيّ من دون نشاطٍ، وفعاليةٍ كتلك التي نهض فيها المسلمون، عربًا وغير عربٍ، في عصر النهضة الإسلاميَّة في القرن الرَّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ عصر أئمَّة الأصول، والتَّاريخ، والتَّفسير، وفي عصر المؤلَّفات عن جمع القرآن، وتدوينه، وعن اختلاف القراءات، وعن العلوم الإنسانيَّة، والعلميَّة البحتة، كان الغرب بعلمائِه، ومعاهده، ومؤسَّساته العلميَّة؛ بل بحكَّامه، ومؤسَّساته السياسيَّة متوجِّهًا نحو تطوير العلوم التي اقتبسوها من العرب، وجعلها، بعد أن

نجحوا كثيرًا في فصل الدِّين عن السِّياسة، أكثر ملاءمةً، ومعاصرةً للحداثةِ، والعصرنة العلميَّة، والصناعيَّة الرَّائدة، وفي المجال الذي نحن بصدده، فقد ظهرتْ أوَّلُ دراسة عن تاريخ القرآن للمستشرق الألمانيّ اللامع ثيودور نولدكه Th. Noldeke الموسوم (تاريخ القرآن Geschichte des Qurans) الذي طبع في كوتنجن Gottingen في عام ١٨٦٠، والدراسة في الأصل هي دراسة نولدكه للدكتوراه قد حصل عليها في سنة ١٨٥٦؛ وكانت بعنوان آخر هو (أصول وبنية أو تركيب السور القرآنيَّة)، وقد جدَّد كتاب نولدكه، وحقَّقه، وأجرى عليه تعديلاتٍ، وأفكارًا مجموعةٌ من العلماء الألمان أيضا أبرزهم فردريك شاولي Fredrich Schwally. وبذلك يعدُّ نولدكه أوَّلَ مستشرقٍ وفَّر لأوَّل مرَّة دراسةً جامعةً شاملةً لرواية جمع القرآن الكريم وتدوينه، كما يرى حقًّا الدكتور مرتضى كريمي نيا Morteza Karimi-Nia في بحثه القيِّم المنشور في مجلَّة الدِّراسات القرآنيَّة المطبوع في مطبعة جامعة أدنبرة في سكوتلنده في سنة ٢٠١٣ (عدد ١٥/ ١) صفحات (٤٦-٦٨)؛ إذ نهد نولدكه بدراسة مستقلَّة عن هذا الموضوع الإسلاميّ الخطير تحمل عنوانًا واضحًا (تاريخ القرآن)، والواقع إنَّ المستشرقين قبل نولدكه لم يكونوا مهمِلينَ هذا الميدان؛ إذ دشَّن المستشرق الألمانيّ أيضًا غوستاف فايل (أو فيل) Gustav Weil (١٨٠٨-١٨٨٩) في كتابه حول التَّاريخ النَّقديّ للقرآن Historische-kritische Einleitung in den Koran المطبوع في ليبزج + بيلدفيلد في عام ١٨٤٤، وما تطرَّق إليه المستشرق الأسكتلندي وليم موير William Muir (١٨١٩-١٩٠٥) في كتابه (حياة محمَّد The Life of Mahomet)[1]، والمطبوع في لندن (١٨٥٨-١٨٦١)، وهو في أربعة أجزاء، وما كتبه المستشرق الألمانيّ ألويس سبرنجر Aloys Sprenger (١٨١٣-١٨٩٣) في كتابه (حياة محمَّد حياة وتعاليمه: وفقًا لمصادر غير مستعملة إلى حدٍّ كبير)

(1) Schacht, ibid., p. 149.

(Das Leben und Lehre des Mohammad: Nach bisher grosstentheils unbenutzen quellentbearb)

ويقع في ثلاثة أجزاء، وطبع في برلين بين ١٨٦١-١٨٦٥. ولكن الريادة في مناقشة الروايات التي أوردها البخاريُّ، وغيره عن جمع القرآن ترجع إلى نولدكه، والمسألة الأكثر أهميَّة بالنِّسبة إلى هذا الموضوع أنَّ تأثيرات (تاريخ القرآن) لنولدكه كانت كبيرة على المواقف الإسلاميَّة كما سنرى لاحقًا؛ فتاريخ القرآن هذا قد نبَّه الباحثين المسلمين على خطأ مواقِفهم غير المكترثة لمكانة القرآن الكريم، ولضرورة الولوج في هذا الباب لأهميَّته في مجالات أعمالهم الدينيَّة، والعقديَّة، وفي دراسة القرآن وجمعه وتدوينه طبعًا؛ فإنَّ تقويم الغرب، وأقصد من المستشرقين والمبشِّرين الذين أعقبوا مرحلة ثيودور نولدكه لم يكن برَّاقًا إلى درجة كبيرة، وقد عبَّر البروفسور هيرالد موتزكي (أو متزكي) Harald Motezki وهو من جامعة نجمغن Nhjmegen (وهي أكبر مدينة في الجنوب الشرقيّ من الأراضي المنخفضة Netherlands) في بحث قيِّم بعنوان (جمع القرآن: إعادة النَّظر في وجهات النَّظر الغربيَّة على ضوء التطوُّرات الحديثة في مناهج البحث العلميَّة[1]، بقوله: صحيح إنَّ عمل نولدكه يعدُّ أوَّل عمل فعَّال، غير أنَّ المؤلِّف قد نهج، وتبنَّى الرواية الإسلاميَّة المتيسّرة Standard عن جمع وتاريخ القرآن، والبروفسور يقصد أنَّ المستشرق الألمانيّ كأنَّه كرَّر المرويَّات المعروفة في جمع القرآن زمن الخليفة الأوَّل، وجمعه زمن الخليفة الثَّالث، من دون أن يحلِّلها أو يغربلها؛ كما فعل محقِّق أو مجدِّد الكتاب فردريك شاولي Schwally الذي خلَص إلى آراء مختلفة كثيرًا عن آراء نولدكه، ثمَّ أعقب ذلك تحقيقًا آخر قامَ به المستشرقُ بيرجستراسر Bergstrasser

(1) Das Leben und Lehre des Mohammad: Nach bisher grosstentheils unbenutzen quellentbearb.

ويقع في ثلاثة أجزاء، وطبع في برلين بين ١٨٦١-١٨٦٥.

وبرتـزل Pretzl وجميـع هـؤلاء العلماء الألمان قـد وضعوا نصبَ أعينِهم إشـكاليَّة جمع القرآن بحسـب المرويَّات التي وردت في مؤلَّفات الصِّحاح، والسُّنن، وتوصَّلوا إلى آراءٍ ضدِّيَّـة من هذه الروايات، وبعضٌ منهُم قد رفضَها رفضًا كاملًا، أو وقفَ إزاءَها موقفًا غيرمؤيِّد في مدى مصداقيَّتها؛ فرفض قبولَها، واستحسانَها، وبالمناسبة فقد ألَّف الدكتور هيرالد متزكي Harald Motzki بحثًا قيِّمًا آخر عنوانه:

Alternative account on the Quran's formation in The Cambridge Companion to the Qura (Ed. by Jane Donner Mcauliffe,1st Ed., Cambridge University Press, 2006), Pp. 65-67.

وله بحوث أُخرى فضلًا عن تحقيقِه الكتبَ بالاشتراك مع آخرين، كالذي كتبه في بحثه الموسـوم (وقفة على أحاديث بشأن جمع القرآن)[1]، كذلك تطوَّر الاهتمام بجمع القرآن في الغـرب؛ ليتحوَّل إلى حالة دراسـيَّة للماجسـتير، والدكتوراه نظيرَ ما قـام به الدكتور شهزاد سليم في دراسته الموسَّعة والمنهجيَّة بعنوان (جمع القرآن) دراسة تاريخية نقدية... وقدِ اعتمد في عرضه لوجهات نظر الغربيِّين على دراسة الدكتور هيرالد متزكي السَّابقة الذِّكر[2].

وقد أعاد بعض المسـتشرقين، والباحثين في الغرب النَّظر في منهجيَّة دراساتِهم عن هذا الميدان في ضوء التطوُّرات العلميَّة الحديثة بالنسـبة للدِّراسـات الإنسـانيَّة؛ فكتب البروفسور هيرالد متزكي موضوع جمع القرآن في دراسة أطلق عليها (جمع القرآن: إعادة النظر في الدراسـات الغربيَّة في ضوء المتغيِّرات المنهجيَّـة الحديثة)، وكتب هربرت بيرغ Herbert Berg بحثًا بعنوان (مضامـين وتورُّطات منهجيَّة لمواقف، ومنهجيَّة، ونظريَّة

(1) Alternative account on the Quran's formation in The Cambridge Companion to the Quran, (Ed. by Jane Donner Mcauliffe ,1st Ed. Cambridge University Press, 2006), Pp. 65-67.

(2) Collection the Quran: A critical and historical study of Al-Farahi's views.

المستشرق جون ونزبورو (أو ونزبورو) John Wansbrough).

ومن الممكن أن نسلِّط الضوءَ على الأطر المركزيَّة التي بدأ المستشرقون في تأسيسِها، ومن بعد ذلك نتحوَّل إلى دراسة المتغيِّرات الفكريَّة، والمنهجيَّة التي نضجتْ، وتطوَّرت عبر الاستعانة بالعلوم الأُخرى، وعلى وجه الخصوص الاستعانة بالمكتشفاتِ الأثريَّة، والنُّقوش في صحراء النَّقب على وجه الخصوص، والمتابعات اللغويَّة السريانيَّة، والآراميَّة، ومتابعات وثائق أوراق البردي، ومتابعات المخطوطات القديمة للقرآن الكريم، وغيرها من نتائج منهج البحث العلميّ الحديث التي ركَّزت عليه دراسات المستشرقين المحدثينَ، والتي شكَّكت كثيرًا بالموارد التي اعتاد البحث التاريخيّ العربيّ، والإسلاميّ الاعتماد عليها في الدِّراسات الإسلاميَّة التَّقليديَّة التي انتظمت، واقتصرت في تعاملِها مع عمليَّة جمع القرآن الكريم عبر ومن خلال رواية معركة اليمامة التي كان مصدرُها الرئيس البخاريّ في صحيحه، تلك الرواية التي شكَّك المستشرقون، وغير المستشرقين في تصديقها لأنْ تكون العامل الوحيد والأساس في الشروع بجمع القرآن الكريم؛ فقد بيَّنت الدِّراسات أنَّ هناك مراحلَ لجمع القرآن لا بحسب رواية البخاريّ المضطربة والمشوَّشة؛ إذ مرَّت بمرحلة الجمع الأوَّل زمن الخليفة الأوَّل، وبمشورةٍ من الصحابيّ عمر بن الخطاب، ومرحلة الجمع الثَّانية خلال زمن الخليفة الثَّالث وبمشورة الصحابيّ حذيفة بن اليمان، والمساعدة التي قدَّمتْها زوجُ رسول الله حفصةُ بنت عمر ابن الخطَّاب التي كانتْ تحتفظ بالمصحف الذي أنتجته المرحلة الأولى؛ ولهذا تمحورتْ توجُّهات، واهتمامات، وتفسيرات المستشرقين، ورؤاهم، وتشكِّيكاتهم وطعوناتهم التبشيريَّة، وغير التبشيريَّة على القرآن الكريم، وبما له علاقة برسول الله ﷺ بالوحي، وبنزول آيات الذِّكر الحكيم على الأوجه الآتية:

فنظريَّة جون ونزبورو في كتابيهِ اللَّذينِ شهرا كثيرًا بهما بين أوساط المستشرقين،

والعلماء والمبشِّرين في الغرب، والعالم وفي الشرق العربيّ، والإسلاميّ، وهما (دراسات قرآنيَّة)، و(الوسط الطائفيّ أو المذهبيّ)؛ وهما كتابان قد تطرَّق إلى عرضهما وتقويمهما كثيرٌ من المستشرقين، والإعلاميِّين، والمؤرِّخين الأوربيِّين، والمبشِّرين، وهذا يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ هؤلاءِ كانوا مهتمِّين جدًّا في آرائهِ التي شكَّك فيها بكون القرآن الكريم قد جُمعَ، أو كُتبَ، أو حتَّى أنَّه كان موجودًا ككتاب مستقلٍّ إبَّان عهد الرَّسول صلى الله عليه وآله، أو إبَّان عهد الرَّاشدين، والأمويِّين، وهو – القرآن الكريم – لم يدوَّن إلَّا متأخِّرًا بحدود القرن الثاني للهجرة، وربما القرن الثَّالث للهجرة، وقد انقسمت آراءُ، ووجهات نظر المعقِّبين على نظرية ونزبورو على جهتينِ بين المؤيِّد، المؤيِّد بشدَّة كما ظهر ذلك عند تلاميذ المستشرق ونزبورو، وهم في الواقع يمثِّلون الجيلَ المعاصرَ من المستشرقينَ المشهورين بكثرة كتاباتهم، وآرائهم في مجريات التَّاريخ الإسلاميّ، وفي صدر الإسلام على وجه التَّحديد أمثال مايكل كوك، وباتريشيا كرونه، وهاوتنغ، وذهب بعض هؤلاء الدَّاعمين، والمؤيِّدين لنظريَّة ونزبورو إلى حدِّ التَّهليل، والإطراء؛ لأنَّ ونزبورو قدِ انتقدَ الإسلامَ، والقرآن وفنَّد أقوال المصادر الإسلاميَّة الأولى نظير ما أظهرهُ المستشرق الإسبانيّ البريطانيّ كارلوس سيجوفيا Andrés Segovia Carlos الذي عنون عرضه لآراء ونزبورو بالعنوان

John Wansbrough and the Problem of Islamic Origins in Recent Scholarship: A Farewell to the Traditional.

جون ونزبورو وإشكاليَّة الأصول الإسلاميَّة، وداعا للتَّقليديَّة[1]، كما عبَّر أيضًا المستشرق المبشِّر الذي وقفنا على دراسته مسهبًا في دراسة أخرى رينولدز وغيره، وفي الطَّرف الآخر وقفَ عددٌ من المستشرقين، والإعلاميين على انتقاد

(1) Andrés Segovia Carlos, John Wansbrough and the Problem of Islamic Origins in Recent (Raditional) Scholarship: A Farewell to the Traditional.

ما جاء به ونزبورو من آراء كما هو في حالة بيَّنها فريد دونر في كتابه عن روايات السَّرد التاريخيَّة عن أصول الإسلام، وإيستيلا ويلان Estelle Whelan في دراستها الموسومة (دليل أو شاهد منسي: يدلل على مصحف مبكِّر للقرآن[1] Forgotten Witness: Evidences for the Early Codification of the Qur'an والموضوع ما زال يثيرُ جدلًا بين المستشرقين المعنيِّين بشأن كيفيَّة جمع القرآن الكريم، والدِّراسات القرآنيَّة بشكلٍ عام، ووافقَ ظهورُ كتاب البروفسور جون برتون John Burton الموسوم (جمع القرآن Collection of Qur'an)[2] في السبعينيَّات معاصرًا لظهور كتابَي جون ونزبورو المشار اليهما آنفًا، والملاحَظ أنَّ كتاب برتون الذي تضمَّن أيضًا آراءً تختلف عن تلك التي تمحورحولها كتاب (دراسات قرآنيَّة لجون ونزبورو) لم يثِرْ ضجَّةً بين صفوف المستشرقينَ في بريطانيا، وعموم أوربا؛ ولعلَّ القارئ اللبيب يتساءل عن السبب في ذلك؟.

أقول: وبشكل مباشَر؛ لأنَّ برتون قد ناقش المصادر الإسلاميَّة بخصوص عمليَّة جمع القرآن الكريم، لكنَّه لم يصلْ إلى درجةٍ تتمثَّل في إنكارهِ وجودَ القرآن، أو إنَّه لم يكُنْ موجودًا قبل المدَّة التي حدَّدها ونزبورو؛ لذلك فإنَّ برتون في نظر المستشرقين، والمبشِّرين الدَّاعمين لنظريَّة ونزبرور لم يجدُوا في الكتاب فائدةً من عرضه، أو فائدة من تطوير الآراء التي أدلى بها جون برتون؛ ولهذا السَّبب مرَّ كتابُ برتون من دون تعقيبٍ من وسط المستشرقينَ، والمبشِّرين، علمًا بأنَّ الدكتور سيف الله وإلياس كريم قد جمعا بين الاثنين جون ونزبورو وجون برتون في عنوان ساخر وهو ربما هو Wansbrough Burton: A Tale Of Two Conspiracy-Mongers ونزبورو وبرتون:

(1) Whelan, Estelle. Forgotten Witness: Evidences for the Early Codification of the Qur'an, 29.

(2) John Burton, Collection of Qur'an (Nov., 1979), 30.

قصــة اثنين من مروِّجي المؤامرة[1]، ومن المعروف أنَّ هناك صيغةً مكثَّفةً لتاريخ البحث العلميّ التي يقوم بها العلماءُ الغربيُّون بشــأن مســألة جمع القرآن الكريم، وهذا التَّاريخ يتميَّــز بالنموِّ، أو بالنموِّ في الميل إلى الانتقاص من القيمة التَّاريخيَّة للروايات الإســلاميَّة بخصوص المسألة، وضرورة إحلال مصادر أُخر بديلة، ووفاقًا لنظريَّاتهم التي يحاولون بواســطتها تفســير: كيف أنَّ النصَّ القرآنيَّ كما هو موجود الآن، وما رأيُ المسلمين تجاهَ تاريخهم؟، فالعلماءُ الأربعة الذين يستقصون المسألة في هذا القرن قد وصلوا إلى استنتاجاتٍ مختلفة تمامًا في ما يتعلّق بتاريخيَّة الجمع القرآنيّ: شــاوللي Schwally يؤرِّخ الوقت خلال مدَّة عثمان، ومنغانا Mingana يرى أنَّ ذلك كان في زمن عبد الملك في نهاية القرن الأوَّل الهجــريّ، وونزبــورو يراه في بدايــة القرن الثالــث للهجرة، وبرتون يــراه في زمن النبيّ (The Collection of the Qur'an (by John Burton), Nov., 30, 1979)[2]، فيقول ســيفُ الله إنَّ ونزبورو يقترح نسخةً بديلةً عن الرواية الإســلاميَّة التَّقليديَّة لعمليَّة جمع القــرآن، وتأليف القــرآن Composed؛ وجون برتون هو تلميذٌ ســابق لونزبورو؛ فقد شــغلَ نفسَه في المشكلة نفسها، وفي وقتٍ معاصر لونزبورو، وقد توصَّل إلى استنتاجاتٍ مختلفةٍ جدًّا عنِ اســتنتاجات أُســتاذه، ولكنَّها ظهرت في السنة نفسها؛ أي ١٩٧٧ يجادل برتــون بأنَّ القرآن قــد جُمع، وصُنِّف في حيــاة محمَّد، بينما قال وتزبــورو إنَّ ذلك الجمع كان بحدود سنة ٨٠٠ م، وكلاهما رفض Reject الروايات الإسلاميَّة التقليديَّة المتعلِّقة بعمليَّــة الجمع التي جُمع فيها النصُّ القرآنيّ، وكلاهما أيضًا قدِ اعتمدَ على التوقُّع بوصفه أساسًــا لآرائهــا، والبعثات التبشــيريَّة المســيحيَّة الذيــن كان من المفــروض أن يحبِّذوا التحدُّث عن المنطق، والوحدة الفكريَّة، ذلك المنهج البحثيّ الذي يؤكِّدونه ظاهرًا؛ فقد تبنَّوا، وبشكل عجيب، نظريَّة ونزبورو، وممَّا يجدر ذكرُه أنَّ ونزبورو كان يعتقد في نظريَّة

(1) Wansbrough & Burton: A Tale of Two Conspiracy-Mongers.

(2) J. Wansbrough, Review of John Burton's The Collection of The Qur'an.

برتون عن جمع القرآن بأنَّه يعدُّ عملًا رائعًا، واستثنائيًّا، وإن هو إلَّا ثمرة دراسة جديَّة استغرقت كثيرًا منَ السَّنوات[1]؛ فاعتمادًا على برتون إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله نفسَهُ كان قد جمع القرآنَ، ومهما يكُنْ فلأنَّهُ كان في خضمِّ مسؤوليَّات الدَّولة الإسلاميَّة لم يستطِعْ دائمًا، وباستمرارٍ أن يتذكَّرَ النُّصوصَ الحقيقيَّة لكلمات القرآن تلك التي كانتْ تُوحى إليه أو تنزَّل عليه، ولذلك لم يتمكَّنْ من أن يؤلِّفَ القرآنَ إبَّان حياته، وطالما أنَّ النَّسخَ قد نشأَ في خلالِ حياتِه؛ فحسب وجهة نظر برتون أدَّى ذلك إلى أن يطوِّر الفقهاءُ مفهومَ النَّسخ، وإلى أن يبتدعوا، أو يخترعُوا (آيات) تلك التي أُسقطتْ، أو أُهملتْ منَ المصحف والتي تتعامل مع الموضوعات الفقهيَّة التي يرغبون بالبرهنة عليها، ولـمَّا كان النبيُّ لم يتمكَّنْ من جمع أو تأليف القرآن؛ فإنَّه لا بدَّ للصّحابة أن يقوموا بذلك، وهذا الأمر هو الذي يفسِّر لنا كيفيَّة تلفيق الرُّوايات المزوَّرة المتعلِّقة بتاريخ تأليف القرآن، ويذكر برتون (أنَّ هذا الدَّافع)؛ أي في إثبات شرعيَّة النَّسخ قد حثَّت المسلمينَ على إقصاء دور النبيّ من تاريخ عمليَّة جمع النصِّ القرآنيّ. إنَّهُ دافعٌ، وباعثٌ كان مفروضًا عليهم، ومُجبَرين عليه، واعتمادًا على برتون؛ لذلك أعطي الدَّور لعثمان في مسألة الجمع، وعلى أيَّة حال؛ فلمَّا كانتْ شعبيَّة عثمان قد تدهورتْ بين جموع النَّاس، فحوَّل الناس شرف الدَّور في عمليَّة الجمع الأوَّل إلى أبي بكر وعمر، وأعطي لعثمان دورًا ضئيلًا، ومع كلِّ هذه الروايات المشوَّشة والمضطربة Jumbled التي ظهرتْ بين أن يكونَ أبو بكر قد جمع القرآن أوْ لا، وبين عمر بن الخطَّاب، وواقعًا فإنَّ بيرتون لم يدعمْ كلامَهُ هذا بأيِّ دليلٍ قويّ، إنَّ المثال النموذجيّ، والأساس الذي اعتمده هو آية الرَّجم، وآية الرِّضاعة Suckling والحقيقة إنَّ برتون لم يُقِمِ الدَّليلَ القويَّ على ادِّعاءاته، أو مزاعمه، وإنَّه قد قدَّم الآيات للبرهنة على صحَّة أطروحتِه، وهذا هو المثال الوحيد الذي يكرِّرهُ في جميع مفاصل كتابِه؛ فإنْ

(1) The School Of Oriental & African Studies, 1978, Volume 41, p. 370.

كان إدعـاؤه صائبًـا لكان قد ذكر آياتٍ أخـرى، وهي كثيرةٌ تلك التـي تعطي الأحكامَ الفقهيَّة، لكنَّها أُسقطتْ منَ المصحفِ، ومهما يكن الأمرُ فإنَّ أطروحة بيرتون جميعها قدِ استندت على المفهوم الخاطئ بحدِّ ذاتِه لجولد تسيهر وشاخت[1].

وكتـاب برتون جمع القـرآن The Collection of the Qur'an يتضمَّن قسـمَين، تناول في القسـم الأوّل منهما مواضيع تتعلَّق بعنوان هذ القسـم وهـو (القرآن والعلوم الإسـلاميَّة الفقهيَّة أوالشرعيَّة)، بمعنى مواضيع لا علاقةَ لها بعمليَّة جمع القرآن الكريم بصـورةٍ مبـاشَرةٍ، لكن مؤلِّف الكتـاب يهدف مـن وراء ذلك إلى جملـة معطيات؛ فهو يخصِّـص بعد مقدِّمـة الكتاب، أو هذا القسـم الحديث عن العلوم الإسـلاميَّة الفقهيَّة، أو الشَّرعيَّـة؛ ثمَّ يعقِّب ذلك موضوع جوهريّ هو العلم الفرعيّ النَّسـخ، بعد ذلك إلى موضوع مركزيّ آخر تحت عنوان (نسـخ الحكم والتلاوة ونسـخ الحكم دون التلاوة)؛ فينتقـل إلى فصلٍ خاصٍّ بالخلفيَّة التاريخيَّة لظهور الشَّـكل الثَّالث، أو الصِّيغة الثَّالثة من النَّسخ، ويشتمل على:

أ. التّفسير أو التَّأويل.

ب. الفقه عقوبة الزِّنا.

ج. المثال الثاني على الشَّكل، أو الصِّيغة الثَّالثة من النَّسخ.

بعـد ذلك، وفي الفصل الخامس، وعنوانه (المصحف تدوين غير متكاملٍ للقُرآن)، وهـو الموضوع الـذي يُعنى بجمع القرآن الكريم، ولكن رُبَّ سـائلٍ يقُـولُ: لماذا جعلَ الحديث عن المصحف في هذا القسـم، ولم يدمجْهُ بالقسم الثاني كأوَّل فصل للقسم الثَّاني الذي يحمل عنوانًا عامًّا، هو تاريخ جمع نصوص القرآن، ولعلَّ الجواب يكمن في الآتي: فهو على الصحيفة ١٠٣ من القسـم الأوَّل يُعنونُ الموضوع بعنوان (المصحف: التدوين

(١) ينظر: سيف الله، المصدر أعلاه (برتون وجون ونزبوروغ قصة مؤامرة): ٣٤.

غـير الكامـل للقرآن)[1]، ويبدأ بالحديـث عن أنَّ جميعَ ما يتعلَّق بهـذا مصدرُه الأخبار، أو الروايـات الحديثيَّـة، يُضاف إلى ذلك التَّفسـير، تفسـير تلـك الأخبـار الحديثيَّة، إنَّ مجموعة واحدة من هذه تصرُّ على أنَّ نظام، أو قاعدة الرَّجم، والرِّضاعة كانتْ جزءًا منَ القُرآن.

أمَّـا المجموعـة الأُخرى؛ فتحاجج عـلى أنَّ عقوبة الرجم قد أُدخلـتْ زمن النبيّ، بوصفـه عُنـصرًا من عناصر سـنَّته، ويتناول فيه مفصـلًا يتعلَّق بالعلاقـة بين المصحف والكتـاب، إذن فالموضـوع لم يكُنْ لهُ صلةٌ بأصل عمليَّة الجمـع؛ إنَّما بما لعلاقة بالعنوان الشَّـامل لهذا الفصل وهو النَّسـخ، والقسم الثَّاني الذي هو مخصَّص لعمليَّة جمع القرآن، وعنوانه الرَّئيس(تاريخ جمع نصوص القرآن)؛ فيتضمَّن الفقرات الآتية:

١. الفصل السَّادس: الجمع الأوَّل.
٢. الفصل السّابع: جمع عثمان.
٣. الفصل الثّامن: عمليّات جمع القرآن: نظرة عامَّة.
٤. الفصل التّاسع: إسناد القرآن: تواتر المصحف.
٥. الفصل العاشر: الاستنتاجات العامَّة، الأعمال أو الكتب المذكورة.

الملاحظات، الفِهرس

والملاحـظ أنَّ برتون ركَّز بشـكلٍ رئيـسٍ على الجمع الذي تمَّ زمـن الخليفة عثمان؛

(1) J. Burton, The Collection Of The Qur'an, 1977, Cambridge University Press,= =pp. 239-240.(35

The Collection of the Qur'an A Reconsideration of Western Views in Light of Recent Methodological Developments *Harald Motzki (University of Nijmegen) P.11. WANSBROUGH, Quranic Studies, Oxford 1977 P. 44, 47, 52. J. BURTON, Collection of the Quran, Cambridge 1977. P. ???. Harald Motzki, P. 7.

إذ عيَّن زيد بن ثابت، وثلاثة شباب من جيل أبناء الصَّحابة عبد الله بن الزُّبير، وسعيد ابن العاص، وعبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام؛ فنسَخُوا المصحفَ في عدَّة نسخ؛ ثمَّ وُزِّعَ هذا المصحف على الأمصار الإسلاميَّة، وابتدأ حديثَه في الفصل الأوَّل بروايةٍ عن الصَّحابيّ زيد بن ثابت؛ إذ روى أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وآله قد توفِّي، ولـمَّا يجمعِ القرآن في كتابٍ واحد، وبرتون يكشف عن أوَّل تناقُض في رواية زيد حين يعقِّب على الرواية، بقولِه: إنَّ زيدًا نفسَهُ قد أدَّى دورًا رئيسًا في جميع الأحاديث التي قيلَتْ بشأن عمليَّات جمع القرآن التي تمَّت بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، لكنَّ الأهمَّ من كلِّ هذا أنَّه يبتدأ في سرد عمليَّة جمع القرآن بالرواية التي كرَّرنا ذكرَها مرَّاتٍ كثيرةً بكونها هي التي أدَّتْ إلى تدخُّلاتِ المستشرقينَ، والمبشِّرين في الطَّعن في العمليَّة المهمَّة جدًّا لجمع القرآن الكريم، وتلك هي روايةُ اليمامة، وأخذَ برتون يناقشُ هذه الروايةَ، ويحتمل أبعادَها، وبالأخصِّ رواية الصَّحابيّ زيدٍ بشأنِ نسيانه لآيةٍ، أو آيتينِ، أو أكثر؛ فصار يبحثُ عنْها؛ فوجدَها أخيرًا عند خُزيمة الأنصاريّ؛ إذ كثَّف برتون مناقشاتِه لسُورٍ، وآياتٍ أُخرى لم تُذْكَرْ في القُرآن الذي جمعَه نظير سورة الرَّجم، والرِّضاعة، هذا هو الشَّكل العام لطبيعة فقرات الفصل الثَّاني لكتاب برتون الذي بلغ عدد صحائفه من الصحيفة ١١٧ إلى الصحيفة ١٦٠، بعدَها يدخل المستشرق في مناقشة الموضوع في فقرة عنوانها (إعادة نظر ووجهة نظر عامَّة)؛ لكنَّنا سنطرح آراء برتون مجملة، وعلى شكل نقاط[1]:

١. يستهلُّ المؤلِّف قولَه في فقرة الاستنتاجات بأنَّ الذي سبق ذكرُه في الكتاب، جمع القرآن، يظهر أنَّ الأمل في أن تساعدَنا الروايات الإسلاميَّة في مسألة تاريخ جمع النُّصوص القرآنيَّة هو أملٌ قليلٌ.

٢. إنَّ هذه الأخبار والرُّوايات إنْ هي سوى حشدٍ من التَّشويشات، والفُوضى، والتَّناقُضات، والتَّضارُبات غير المترابطة في نسيجِها الدَّاخليّ.

(1) John Burton, The Collection of the Qur'an, Cambridge, 1977, p. 225.

٣. وكالذي وجدَهُ كلٌّ من نولدكه، وشاولي؛ فاعتمادًا على هذه الروايات المضطربة؛ فإنَّ جمع القرآن قد حصلَ أوَّلًا من قبل أبي بكر؛ وأنَّه جمع من قبل عمر؛ أو أنَّ جمع القرآن قد ابتدأ زمن أبي بكر، وأكمله عمر؛ أو أنَّه قد ابتدأ به أيَّام عُمر، وأكمل أيَّام عثمان؛ أو أنَّه قد جُمع من قبل عثمان وحده.

٤. هناك غموضٌ بالنِّسبة إلى ما ذكره نولدكه شاولي، وذلك يرجع إلى كونهما لم يميِّزا بين جمع المصحف، وبين جمع القرآن.

٥. وناقشَ المستشرقُ برتون مسألةَ مُصحف حفصة، وعلاقته بجمع القرآن من قبل عثمان.

٦. إنَّ هذه الروايات المضطربة، والمتناقضة تدلُّ دلالةً واضحةً على تشوُّش العلماء المسلمين، واضطرابهم بشأن جمع القرآن.

٧. ويقترح برتون إزاء هذا الاضطراب في الروايات استنتاجًا هو: لكي يميِّز جمع القرآن بكونه إجراءً قدِ اتُّخذ في مدَّة مبكِّرة من الإسلام، ومن أجل أن يضمنَ تواترًا في النَّقل؛ فإنَّ جمع القرآن لا بدَّ أن يكونَ مُرتبطًا باسمٍ واحدٍ من خلفاء محمَّد المباشَرين، وهذا هو السَّبب للتَّوفيق بين نسبتِه المشوَّشة تلك؛ أي إمَّا إلى أبي بكر، وإمَّا إلى عمر، وإمَّا إلى حفصة، وإمَّا إلى عثمان.

٨. صار الحديثُ هو السِّلاح الذي استُعمل في المجادلات القديمة للمفسِّرين في ما يتعلَّق بتلك السُّور المنسيَّة أوالتي لم يتذكرْها جمَّاعُ القُرآن أوْ لا[1].

وعلى أيَّة حالٍ فقد وقفْنا في أعلاهُ على استنتاجات برتون، ومواقفه من عمليَّة جمع القُرآن، وأراني أتَّفقُ معه في رأيه من أنَّ السَّبب الرئيس والمضرّ جدًّا في الوصول إلى رواية

(١) ينظر: متزكي، المصدر أعلاه: ١١، وبحث تأثير نولدكة:
A Historiography of the Quran in the Muslim World: The Influence of Noldeke by Morteza Karimi-nia in the Encyclpodia Islamic Foundation, Tehran.

صحيحةٍ، وثابتةٍ وغيرِ خاضعةٍ لأهواء المحدِّثين، والفُقهاء من جهةٍ، وبعيدة عن المصالح السياسيَّة، وبأنَّ الجمعَ الأوَّل يرجع إلى فلانٍ أوفلان،أوعدم شعبيَّة الخليفة عثمان هي الدَّافع وراء تحريفِ المحدِّثين، أو رواة مؤلَّفات الصِّحاح، والتَّفسير، والمصاحف؛ ليجعلوا أمرَ الجمع الأوَّل بدلًا من جمع عُثمان إلى الخليفة أبي بكر، أو إلى الخليفة عمر، أو إلى دور مصحفِ حفصة، أو عائشة، أو غير ذلك؛ فهذه الرواية الخطيرة روايةُ معركة اليمامة هي السَّببُ الأوَّل في الفُوضى التي جعلتِ المستشرقين، والمبشِّرين كلٌّ واحدٍ منهُم يدلُو بدلوهِ، وبتفسيراته، واقتراحاته، وما إلى ذلك، أليس هناك أيّ حلٍّ لمثل هذه الفُوضى في الاختلافات التي تغلبُ عليها الشخصانيَّة، والعظمَة؟؟!، وهناك رواية واحدة متماسكةٌ، وواقعيَّة، وتاريخيَّة تلك التي تصرِّح بكفايةٍ، ووضوحٍ أنَّ الإمامَ عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد أفرغ نفسَهُ لمدَّة ثلاثة أيَّام لا يخرج من بيته سوى للصَّلاة في المسجد الجامع في المدينة؛ فجمع القرآنَ الكريمَ الذي سلَّمه إيَّاه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فجمعَهُ، وكان في سبعة أجزاء مبوَّبة، ومرتَّبة من دون تشويشٍ، ولا اضطراب، وأنَّه أتى به يحملُه على جملٍ؛ فقال: «**هذا القرآن قد جمعتُه، وكان قد جزّأهُ سبعةَ أجزاءٍ**»(١).

١. الجزء الأوَّل: من (سورة البقرة) إلى (سورة سبِّح اسم ربك، ولم يكنْ)، وهو جزء أطلق عليه اسم البقرة، وهو ثمانمائة وستٍّ وثمانون آية، وهو ستَّ عشرة سورة.

٢. الجزء الثاني: بدءًا من (سورة آل عمران) حتَّى سورة (ألم ولإيلاف)، وأُطلق عليه جزء آل عمران وهو يقع في ثمانمائة وستٍّ وثمانين آية، وهو خمس عشرة سورة.

(١) ينظر: ابن الوراق في بحثه على موقع الانترنيت:
Skepticism and Koranic Research by Ibn Warraq (Dec. 2007). The Collection of the Qur'an (General Conclusions), Pp.225-240.

٣. الجزء الثَّالث: ويبدأ من (سـورة النِّساء)، وينتهي بـ(سورة النَّحل)، وهو جزء النساء، ويقع في ثمانمائة وستٍّ وثمانين آية، وهو سبع عشرة سورة.

٤. الجزء الرابع: ويبدأ من (سورة المائدة)، وينتهي بـ(سورة أيُّها الكافرون)، وهو جزء المائدة، وهو ثمانمائة وثمانون آية، وهو خمس عشرة سورة[١].

٥. الجـزء الخامـس: ويبدأ من(سـورة الأنعام)، إلى (سـورة أَلهاكـم)، وهو جزء الأنعام، وهو في ثمانمائة وثمان آية، وهو ستَّ عشرة سورة.

٦. الجزء السَّـادس: ويبدأ من (سورة الأعراف)، حتَّى (سورة إذا جاء نصر الله)، وهو جزء الأعراف، ويقع في ثمانمائة وثمانين آية، وهو ستَّ عشرة سورة.

٧. الجـزء السَّـابع: ويبـدأ مـن (سـورة الأنفـال)، وينتهـي بـ(سـورة المطفِّفين والمعوِّذتَـين)، وهو جزء الأنفال، وفيه ثمانمائة وسـتٍّ وثمانين آية، وهو سـتَّ عشرة سورة[٢].

إذن فالمصحفُ جاء على هذه الصِّيغة:

- ٨٨٦ آية ١٦ سورة.
- ٨٨٦ آية ١٥ سورة.
- ٨٨٦ آية ١٧ سورة.
- ٨٨٦ آية ١٥ سورة.
- ٨٨٠ آية ١٦ سورة.
- ٨٨٦ آية ١٦ سورة.
- ٨٨٦ آية ١٦ سورة.

المجموع ٦١٩٦ آية في ١١١ سورة.

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٨.

(٢) م.ن: ٣٠، السيوطيّ، الإتقان: ١/ ١٦٩.

إذن فهـذه مكوِّنات مصحف الإمام عليّ عليه السلام، وأجزائه حفظها لنا اليعقوبيّ، وقيس الهـلاليّ، والعلّامـة المجلـسيّ، وهي تعـدّ دليلًا، وشـاهدًا لدحض روايـات البخاريّ، والمستشرق جون برتون، والمبشِّر جلكرايست الذي سيأتي عرض تخرُّصاته في الصحائف الآتيـة تلك التي تزعم بـأنَّ مصحف الخليفة الأوَّل هـو أوَّل المصاحف، وأنَّه لا وجودَ لمصحفٍ متكاملٍ، ومكتوب في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، إنَّه مصحفٌ، منظَّمٌ، وسورُه مرتَّبة على غرار ما كان وحي الله تعالى ينزِّله على الرَّسـول الأمين صلى الله عليه وآله؛ فالإمام عليه السلام كما ذكر ابن النديم أوَّل اسم ذكره ابن النديم بكونه من جمَّاع القرآن في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله.